ابراهيم عبد القادر المازني

قصة حياة



دار الشروق



قصة حياة

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

© دار الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة

ابراهيم عبد القادر المازني

قصة حياة

دار الشروق

الغلاف بريشة الفنان مصطفى حسين

قصّة حياة

هذه ليست قِصّة حياتي ، وإن كان فيها كثير من حوادثها . والأولى أن تُعدّ قِصّة حياة .

إبراهيم عبد القادر المازني

مقدمة

فتحت عيني أول ما فتحتها في حداثتي على دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل وتقول له : « أتظن نفسك طفلاً ، له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب ؟ لشد ما ركبك الوهم يا صاحبي ! لا كرة ولا لعب . وعليك أن تثب الآن وثباً من هذه الطفولة التي كان ظنك أن ترتع في ظلها إلى الكهولة دفعة واحدة ! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثباً أيضاً » .

وأنكفئ إلى أمي أسألها عن الكرة لماذا حرمتها دون غيري من لداتى فلا تقول أنها آسفة ولا أنها ترثي لي ، أو أن قلبها يعصره الألم من أجلي ، بل تضع راحتها الرخصة على كتفي وتقول لي بصوت متزن : « اسمع يا ابني إنك لم تعد طفلاً ، وإنما أنت رجلنا الآن ، وسيد البيت ورأس الأسرة وكبيرها ! أي نعم . فقد ترك لنا أبوك مالاً كان فوق الكفاية ولكن المال ذهب . ولم يبق لنا شيء » .

فسألتها : « هل معنى هذا أننا سنجوع ونعرى ؟ » .

فلم ترحمني . وقالت : « قد نجوع ونعرى ! من يدري ؟ ولكن أملي في الله كبير . وعندي حلى ومتاع لا حاجة بي إليه . فسأبيع من هذا ونقتات ونكتسي . وستواصل التعلم ـ ما من هذا بد ـ حتى ينفد المال ، وينضب المورد . وعسى أن يكون بعد العسر يسر . فما يئست من رحمة الله . ولكنني لا

أرى أن نعتمد على غير ما بأيدينا ، وهو قليل فاعرف هذا ، رض نفسك على السكون إليه والنزول إلى حكمه » .

قلت : « ولا اللعب ؟ » .

قالت : « بلى ، ولكن بغير كرة نضيع فيها مالا بنا حاجة إليه لقوتنا . إن الكرة تشجع على الركض ، وتغري بالنط . فاركض بدونها ، ونط بغيرها وسترى أنك لن تخسر شيئاً » .

فصرت أركض لأن هذا واجبي ، وما تتطلبه الحيوية التي لا تزال مقصورة على أعضائي . على حين كان يركض غيري للهو والتسلية .

فعرفت في التاسعة من عمري ـ وهي سن غضة جداً ـ أن هناك واجبات تؤدى لذاتها ، وحقوقاً تقضى لأنها حقوق ، لا لأن فيها متعة ولذة . وأحسست من صغري أن شأني غير شأن الناس ، وإني فقير وإن كنت مستور الحال . ولكن الستر لا ينفي الشعور بالفقر وغضاضته ومضضه . فأرهف ذلك إحساسي ، حتى صار ينحي بمثل حد المبراة على قلبي فيحزه ويقطعه . فنزعت شيئاً فشيئاً إلى الانقباض عن الناس ، واتقاء الخوض معهم فيما يخوضون ، مما يستدعي نفقة وتكون فيه كلفة .

وقوي هذا الميل في نفسي وعمقه أني بعد الذي سمعته ووعيته من أمي ، قصدت إلى أخي الأكبر ـ وهو من غير أمي ـ وسألته عن مال أبينا أين وكيف ذهب ؟ فقال وهو يكاد يشرق بدمعه ، وأنا أنظر إليه جامد العين أنه هو الذي أضاعه ، وجر علينا هذه المحنة ، ولكنه يرجو أن يعوضنا خيراً مما أتلف . فأحسست أني شببت جداً عن الطفولة في تلك اللحظة !

وانصرفت وأنا أتساءل « أليس لكل امرئ حقه ؟ فكيف يتسنى لواحد أن يجني على جماعة ! وكيف ولماذا يجد الوسيلة إلى ذلك ؟ » ..

وصرت أخاف الناس وأنظر إليهم شزراً . وإذا كان الأخ يجني على إخوته

وأمهم وجدتهم . فما ظنك بالغريب الذي لا تصلك به رحم ، ولا تعطفه عليك عاطفة من قرابة أو نسب .. ؟ » .

وأقبل علينا قريب لنا يقول إن في وسعه أن يرفع عن كاهلنا عبء نفقات التعليم ولكن « الواسطة » يطمع في جزاء أو « رشوة » فأبت أمي كل الإباء . فما زال بها حتى ملت إلحاحه ، فدفعت إليه ما يطلب . وغاب شهور الصيف . ثم جاءنا يقول إن الوزارة أعفتني من نصف نفقات التعليم ، فقلنا شيء خير من لا شيء . ولكنه كان كاذباً . وتبينا أنه لم يرش أحداً ، وإنما استحل أن يسرق مالنا نحن الفقراء بهذه الخدعة .

فزاد سوء ظني بالناس ، وانزويت عنهم ، وأقبلت على دروسي لأفرغ من التحصيل بأسرع ما يستطاع ، فيتسنى لي بعد ذلك أن أكسب رزقي ، وأنقذ نفسي وأهلي من هذه الفاقة التي منينا بها لغير ذنب جنيناه .

وترك هذا كله أثره في نفسي ، فاجتنبت أن أعاشر إلا الذين أرى حالهم يشبه حالي أو يقاربه ، وصرت أشعر أني غريب إذا ألقت بي المصادفات بين قوم من السراة أو الأثرياء أو المتظاهرين بالغنى ، كأنهم ناس من شاكلة أخرى ، وخلق مختلف . فكنت أنفر أشد النفور من مجالستهم أو مخالطتهم . ويكبر في وهمي أنهم لا يخفى عليهم أني نشأت فقيراً . وأني امتحنت في صباي أقسى امتحان ، وأن ما أراه من مظاهر غناهم ليس إلا مخايلة مقصودة يشقون لي بها جفوني ويطلعوني على ما بيني وبينهم من بون .

وكنت قد كبرت وأصبحت معلماً ، وعندي فوق الكفاية من الرزق فأشفقت ان يورثني هذا عقدة نفسية أو « مركب نقص » كما يسمى . فعالجت ذلك بالتمرد ، ورحت أعد الذين نشأوا في حجر النعمة وظل اليسار ، من المنبوذين ، لأنهم متكلفون غير مخلصين لأنفسهم ولآدميتهم ، ولأنهم مترفون ، متطرون خرعون ، لا يعرفون شرف الكد ، ولا يدركون مزية الكدح والسعي ، وإنما يعيشون عيشة الفضول والتطفيل ، ولا يحيون حياة

صحيحة ، ملأى بحركة الشعور والعقل ، فلا احتفال بهم ولا اكتراث لهم ، وأنا وأمثالي أحق منهم بالكرامة وأولى باستيجاب التعظيم .

وارتفعت بي السن شيئاً فشيئاً ، وزادت التجربة ، ورحب الأفق على الأيام . فأدركت أني أسرفت على نفسي وعلى الناس . وتبينت أن لا داعي للمرارة ، فقد أفادتني المحنة صلابة وعزماً وثقة بالنفس وجرأة على الحياة والمغامرة فيها ، ولو كنت نشأت في نعمة سابغة لكنت حرياً أن يفسدني التدليل ، ولا ذنب للناس جميعاً فيما كان من أحدهم أو بعضهم وفي الدنيا الصالح والطالح ، ومن الظلم أن يبوء البريء بإثم المذنب ، وأن تؤخذ الجماعة بجريرة واحد ، وكل امرئ يزل ، والعصمة لم يؤتها إنسان وحتى ما جنى أخي قمن بالغفران . فما هو في ذاته بالذي توصد دونه أبواب العفو ، وما عدا المسكين أنه طاش طيشة كان من الجائز أن أطيشها لو كنت مكانه وكان حبلي على غاربي كما كان على غاربه ، وما أعرفه أفاد إلا متعة قصيرة وحسرة طويلة على ما ضيع ، وما أهداه إلينا من الكرب الجسام ، فهو جدير بالرثاء والرحمة والنقمة . وما شهدت النعمة التي تقلب فيها زمناً وجيزاً ، ولكني شهدت الندامة التي ظلت تأكل قلبه بقية حياته ، وكنت على الرغم مما أساء أوقره وأنزله منزلة الوالد لأنه أسن مني ، ولكنه هو كان أشد توقيراً لي مني له ، وأعظم بي تحفياً . ولما نشرت أول كتاب لي ـ وكان ديوان شعر ـ حملت إليه أول نسخة منه أخرجتها المطبعة . فتناولها معجباً ، وقلبها جذلاً ،وشرع يقرأ ، فما راعني إلا دمعه المنهمر ، من فرط الحنو والزهو . فنهضت إلى زوجته وتشاغلت بالحديث معها ، فما أطيق البكاء ، ولا أعرفه ، وإني لأدري أن الدمع رحمة وأنه كما يقول ابن الرومي :

لم يخلق الدمع لامرئ عبثاً ... الله أدرى بلوعة الحزن

ولكن قسوة الكفاح ومرارة الصبر على طول الحرمان ، جففتا عبراتي وعلمتني أن أبكي بقلبي دون عيني ، وأن أستر ضعفي عن الناس ، فلا أبدو لهم إلا بصفحة وجه يقرأون فيها آيات الرضى والاستبشار والثقة . والفضل في

ذلك لأمي ، فقد جئتها يوماً أبكي لأن غلاماً ضربني فأوجعني ، فنظرت إلي باسمة ، ولم تربت على كتفي ، ولم تكفكف دمعي ، ولا واستني وإنما قالت لي : « رجلنا يبكي ؟ فماذا عسانا نصنع نحن النساء الضعيفات ؟ » فخجلت ، ولم أكن خبرتها الخبر . فقلت ـ كأنما كنت فعلت ـ « ولكنه أكبر مني » قالت « لا شك ، ولكن حيلتك ينبغي إذن أن تكون أوسع » فما غلبني بعد ذلك اليوم غلام أسن أو أكبر جسماً ، حتى خافني صبية الحارة وحرصوا على اتقاء شري .

والعبرة بالخواتيم ـ وقد انتقلت بي الحال بعد طول الضنك إلى سعة مرضية وخير كثير فالحمد لله على ما أنعم ويسر .

ورضيت عن الدنيا وانشرح صدري للحياة ووجدت أن التسامح الذي مبعثه الفهم وصحة الإدراك أجلب لسرور القلب وطمأنينة الخاطر ، وسكينة النفس ، من تلك المرارة القديمة التي كان ينضح بها الوجه ويقطر اللسان . وألفيتني أغتبط بأن أتلمس ما يروق ويسر من جوانب الحياة ، وأن أبرز هذه الجوانب الوضيئة للناس وأشركهم معي في نعيمي بها ، وأحاول أن أفتح لهم كوى تدخل منها الشمس فتضيء لهم وجوه العيش وتمنحهم الدفء ، وتشيع الابتسام والجذل في وجوههم وقلوبهم ، وأن أقطف لهم من أزهار الحياة ريحاناً وآساً ونرجساً ، وأن أجمل ما كان يبدو لي ولهم دميماً ، وأزين العاطل وأرقرق الماء في حواشي النسيم ليعود أندى على القلب وأثلج للصدر .

وتوسعت في هذا وتعمقت . فقلت : إني مثل الناس غيري ومنهم ، وكلنا مجبول من طين واحد ، ولست خلقاً قائماً بذاته ؛ أو بدعاً في هذه الدنيا ، ومن الممكن أن أعرف الناس معرفتهم إذا أنا وسعني أن أعرف نفسي ، فصار دأبي بعد هذا أن أخلو بنفسي ، وأحاسبها ، وأراجعها ، وأغوص في أعمق أعماقها على بواعثها ، وعلى ما تغري بها غرائزها المهذبة أو الساذجة ، وأن أقف على دواعي ضعفها ونقصها ، وأسباب قوتها ، وجعلت كدي كلما بدا ما يسوء ، أو يريب أو يسخط ، من أحد أن أحاول أن أضع نفسي في مكانه ،

وأن أنظر ماذا كنت خليقاً أن أصنع لو أنني كنت محله ، وكان يحيط بي ما يحيط به ، وكان لي مثل حظه الكثير أو القليل من العلم والتجربة ، فأصبحت فيما أعتقد ـ غير مغرور أو مخدوع فيما أرجو ـ أعدل وزناً وأكثر إنصافاً ، وأسرع إلى تمهيد العذر مني إلى سوء الرأي .

وليس معنى هذا أنني الآن أرى أن الدنيا وأحوالها على خير ما يمكن أن نكون ، أو أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، أو ما هو كائن . كلا . ولكني أرى أن معالجة الأسواء والفساد بحسن الإدراك ، وصحة الفهم ، والرفق والحسنى ، أجدى وأرشد . وماذا يفيد تعذيب النفس بالتسخط وتلهب الغضب واحتدام النقمة ؟ . إن الذي له قيمة هو أن ندرك أن هناك ما يستوجب الإصلاح والتقويم ، وأن نهتدي إلى وسيلة الإصلاح ومداه وليست ثورة النفس بالتي تعين على هذا وتيسره ، فإنها خليقة أن تورثنا إضطراباً في التفكر ، وأن تجمح بنا إلى غير ما يشير به العقل ، وتصفه الحكمة . وإنما الذي يعين على الصلاح والخير ، والتفكير الهادئ والتدبر الرصين ، وقياس مبلغ القدرة إلى الأمل ، وأصالة الرأي ، والحذق في التدبير ، ولا سبيل إلى شيء من هذا إذا اهتاجت النفس ، وقامت قيامتها وثارت كاللجة المزبدة .

ولماذا أكتب كل هذا ؟ ما صلته بموضوع الكتاب ؟ لا أدري ! سوى أني لطول اعتباري أن أتدبر نفسي وأدير عيني في جوانبها ، أصبحت أعتقد أني أستطيع أن أعرف الناس بنفوسهم إذا وسعني أن أكشف لهم عن عيونهم صورة صافية ـ لا مزورة ولا مموهة ـ من هذا الإنسان الذي هو أنا ، والذي هو أيضاً كل امرئ غيري . وليس هذا بالمطلب الهين ، وما كان مناله قط ، ولن يكون دانياً . غير أن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله ، وعلى المرء أن يسعى جهده وعلى الله التوفيق ، وإن طاقة الإنسان لمحدودة ولكنه ليس عاجزاً كل العجز ، ولو أن كل إنسان أخلص وصدقت سريرته وبذل ما يدخل في وسعه ، لعادت الحياة أطيب وأبعث على الرضى .

وأحسب أن من بواعثي على هذا الاستطراد ، أني أقول لنفسي إذا أنا

لم أنفع بتجربتي وفهمي هذا الجيل الذي بحث الخطى وراء جيلي ، فما خير أني كنت وعشت ، وفهمت أشياء وجربت أموراً ، وألممت الحقائق ؟ إن من ألأم اللؤم أن تبخل بعلمك على غيرك . وقد يعذر الذي يضن بالرغيف وهو جائع ، على رفيقه ، وفي الطباع الانسانية أن يؤثر المرء نفسه ، في خصاصته ، على غيره وقد يبلغ المرء من الحرص على الذات في المحنة أن يخطف اللقمة من فم ابنه وهو ضنوه وفلذة كبده لأن التضور وخوف التلف الوحي يثيران غريزة حفظ الذات فيذهل الإنسان عن واجب المروءة ، وواجب الأبوة ، ولكن المعرفة ليست مادة يحفظ بها البدن من الوبال ، وهي لا تنقص بالشيوع والاستفاضة ونصيبك منها لا يقل إذا بلغ فيها غيرك مبلغك ، وفي وسعك أن تهدي منها ولا تخشى عليها النقص ، ومن المحقق أنك أحرى أن تكون أسعد إذا صار الناس أعلم وأفطن وأوسع مدارك وألطف حساً .

فالضن بالمعرفة ضيق عقل وسوء رأي ، ولؤم نفس وخسة طباع – بلا مسوغ ما ، ولا فائدة ما – لأن الناس يصلون إلى المعرفة أردت أو لم ترد ، وبمعونتك أو بغيرها . فما أنت في الدنيا بالوحيد الذي ينظر فيجد ، ويبحث فيهتدي ، ويعالج فيوفق .

وأمر آخر أردته ، وأظنه مما ساقني فاستطردت . ذلك أن الناس أشباه متماثلون وإن تفاوتت بهم الأحوال ، وليس اختلاف النشأة بمانع أن تكون التجربة من معدن واحد ، وإن كان المظهر يوقع في الروع لأول وهلة أن المخبر شيء آخر .

* * *

١

تلك كانت حياتي ـ فقد نشأت في بيت صارم التقاليد في ساحته الواسعة مصلى وميضاة ، وعلى جانبي مدخله غرف لإقامة الأتباع والتلاميذ والمريدين ، وكانت آخر هذه الحجرات ، مما يلي الساحة مباشرة ـ غير مسقوفة ، وكانت تتخذ اصطبلاً لمن له بغلة أو فرس أو حمار ، وبعد المغرب من كل خميس يجتمع المتفرقون من هؤلاء الأتباع في المصلى ، ويتلون « الورد » وهم قعود ثم يذكرون الله ، ثم يقومون إلى صلاة العشاء ، ثم إلى الطعام فالخلوة ، وفي الفجر يخرجون إلى مقبرة الشيخ الكبير .. وهناك يتلى « الورد » مرة أخرى ، وتعقد حلقة الذكر .. ثم يؤكل « الفول النابت » والخبز .

وكان يروقني هذا ويستولي على خيالي ، فأشاركهم فيه ، وأتلو الورد الذي يتلونه ، وأصلي على النبي كما أراهم يصلون ، وأهز رأسي وجسمي في الصف عند « الذكر » كما يفعلون ، وأحاول ـ عبثاً ـ أن أجعل صوتي غليظاً عميقاً ، وأرافقهم في الفجر إلى المقبرة ، وأزيد عليهم فأعرج على قبر أبي فأزوره ثم أرتد إلى الحارة واللعب ، والقلب راض والنفس ساكنة .

ولم يكن هذا بيت أبي ، وإنما كان بيتاً يسع من شاء من الأسرة

أن يذهب إليه ويقيم فيه ، فقد كان واسعاً كبيراً ، فلما مات أبي وساءت حالنا بعده ، اتخذنا لنا فيه شقة اقتصاداً في النفقة ، وعز علي ذلك في أول الأمر فقد كان لنا بيت خاص لا يشاركنا فيه مشارك ، وكان عندنا الخادم والخادمة والبواب والبستاني ، ومن العجيب أني أذكر مدخل البيت وساحته الرحيبة وحديقته والنافورة والحجرات من حول ذلك ، وفيها مكتب أبي ومكاتب الوكيل ومساعديه ولكن ما عدا ذلك بهتت صوره ، وأذكر أني كنت أدخل على أبي في مكتبه وعنده أصحاب القضايا ، فأقف إلى جانبه وهو مكب على الورق ، وأنا ساكت لا أقول شيئاً ولا أتحرك ، حتى يرفع رأسه ويمد يده إلى فنجان القهوة ، فأقول بصوت خفيض « أبويا . أبويا . أبويا هات قرش .. » فيضع يده في جيبه ثم يخرجها بما تخرج به ـ بقرش أو نصف فرنك ، أو أقل أو أكثر ـ فأتسلل بما أعطيته ، فألقى أخي الأصغر ينتظرني عند الباب ، فنخرج إلى الحارة حيث نجد بائع الدندرمة .. فندفع إليه ما معنا ، ونأكل حتى نشبع ونحمد الله ، أو لا نحمده فنميل على دكان مجاورة لبيتنا فنشتري كرات وبليا وما إلى ذلك ـ نبدد الفلوس والسلام . وكان أخي أصغر مني وكان جميلاً مشرق الديباجة سميناً وبضاً غضاً ، فكان أبي يخاف عليه أن تصيبه العين ، ومن هنا أمر ألا يدخلوه عليه في المكتب لئلا يراه ذو عين فيحسده فاتفق يوماً أني كنت عند عمتي ، فلما مر « بائع الدندرمة » أقبل عليه الغلام بالطلب كالعادة ، فناوله من مثلجاته ، ولم يجد أخي معه ثمن ما أكل ، فخلع طربوشه ، وعرض على الرجل أن يقبله بديلاً من الثمن وكان أخي ولا يزال عظيم الرأس ، فطربوشه يصلح للكبار ، فمضى الرجل به ولم يعد بعدها لسوء حظه .

ومن الصور التي لا تزال ماثلة أمام عيني ، أن جدي دخل على أبي في مكتبه يتوكأ على عكازه ، فنهض له أبي واقفاً وأفسح الزبائن له

ليقعد ولكنه لم يفعل والتفت إلى أبي وطلب منه شيئاً ، فاستمهله هذا فما كان من الجد إلا أن رفع « العكاز » وأهوى به على كتف أبي ، فتأوه واختبأ تحت المكتب ، وانصرف جدي غاضباً ساخطاً يلعن العقوق ، وعاد إلى كرسيه في مدخل البيت .

وكنت أنا حاضراً هذا الذي حدث ، فشق علي أن أرى جدي يضرب أبي بهذه الهراوة الضخمة ، فخرجت إليه فناداني وأدناني منه وأجلسني على حجره وشرع يلاطفني ويدعو لي ، ولكني كنت مغيظاً محنقاً فتناولت شعرات من لحيته الكثة وشددتها وفي نيتي أن أنتفها كلها عقاباً له ، فزجرني وأدار وجهه ورفع يده له لتخليص لحيته ، فبدا لي قذاله فصفعته فطار عقله ودفعني فارتميت على الأرض ورأيته يميل على هراواته ويتناولها فوضعت ذيلي بين أسناني وانطلقت أعدو .

وقد ظل جدي شهراً يأبى أن يكلمني أو ينظر إلي ، وأنا أكاد أجن من ثقل الشعور بالحرمان من عطفه ، فلما فاءت نفسه إلى الرضى كتب لي حجاباً وجلده ـ حفظاً له من التلف ـ وعلقه على جنبي الأيسر ليقيني الله سوء الأدب ، إذ كان قد وقع في روعه ووقر في نفسه أن الناس حسدوني فكان مني هذا الذي أسخطه علي .

وكان شر ما يمكن أن يعاب به الواحد منا نحن الصبيان ، أن يراه أحد واقفاً يحدث بنتاً أو يلاعبها . يا حفيظ ! ولد يلعب مع بنت ... هذا إثم كبير ومعصية توصد من دونها أبواب الغفران ، فإنه عيب وسوء أدب وقلة حياء وفساد تربية ، وأشنع من هذا وأبلغ في العيب وسوء الأدب أن تلعب البنت في الشارع أو في ساحة البيت ، ألا تكفيها حجرات البيت التي تطل نوافذها على الطريق وعلى فناء الدار .. ؟ وصحيح أن الشبابيك مسمرة ؛ ولكن النظر من الثقوب ميسور وهذا يكفي ، بل كان من

العيب أن يرى الرجل زوجة أخيه إذا كانت غريبة أو من غير قريباته .

وتغرب الشمس فيجمعنا الخادم من الشارع ، ويهش علينا كما يهش على الغنم أو الدجاج ، ويردنا إلى البيت والحجرات ذات الشبابيك المسمرة مخافة أن يخطفنا أحد إذا بقينا نلعب في الحارة ، أو يصادفنا « السماوي » فيميتنا ، أو يظهر لنا عفريت فيركبنا أو يرعبنا أو يفعل بنا غير ذلك مما تفعل العفاريت ، ويكون الحر شديداً والليل جميلاً وتزهق أرواحنا في الغرف المكتومة ونشتهي أن ننعم بالليل والسماء الحاة بالنجوم الخفاقة اللمعان ، ولكن لا سبيل إلى ذلك .

وكانت بنت خادمتنا في مثل سني ، فكنت أتوق إلى ملاعبتها بعد إد نهش إلى الغرف في الليل فتأبى أمي وأمها ذلك علينا وتصرفاننا عنه لأنه عيب ، وتجر الخادمة بنتها إلى حجرتها ـ تجرها من أذنها وتشد عليها وتقرصها وقد تضربها علقة ، وتجرني أمي من يدي أو من شعري إذا حرنت ، أو تحملني وأنا أضرب بيدي ورجلي في الهواء وأصرخ وأصيح وترقدني برغم أنفي على السرير وتغطيني باللحاف وتروح تحدثني عن العفاريت وتصف لي ما تصنع بالأطفال الذين « لا يسمعون الكلام » ولا يفعلون ما يؤمرون ، وتروي لي قصصاً يقف لها شعر الرأس ويتقبض الجلد عن « المريرة المؤتزرة » و « أبي رجل مسلوخة » وغيرهما وغيرهما فأتضاءل ويدخل بعضي في بعض ، وتهم بأن تتركني وقد اطمأنت إلى سكوني ووثقت أني غير مفارق فراشي في ليلتي تلك ، فأصيح بها وأناديها وأدعوها أن تبقى إلى جانبي لأن « اللحاف » يحدق في بعينين تقدحان شرراً ، أو لأن دهان الحائط يبدو لي عليه رسم يشبه ما سمعت من أوصاف أبي رجل مسلوخة فأنا أخاف أن يتجسد ويخرج من الجدار ويميل علي بأسنانه وأظافره .

وبعد لأي يغلبني النعاس فأنام وأنا أحلم بالعفاريت والامساخ والليل المخوف والنهار الذي يعيد الطمأنينة ، والسلالم المظلمة ومايختبئ لي عندها ، ولم تكن أحلامي تخلو من متع منغصة ، وما أكثر ما رأيت في منامي أني لاعبت هذه أو تلك من البنات وأن أهلي دهنوني بالسمن والعسل وقيدوني ورموني في ركن حالك السواد وتركوني للحشرات وغيرها من المؤذيات والمرعبات ..

ويصبح الصباح فأحمل إلى « الكتاب » حملاً ، وهناك توضع قدماي في « الفلقة » ويهوي عليها « سيدنا » ـ فقيه الكتاب ـ « بالجريدة » أو « المقرعة » أو يكل ذلك إلى مساعده « العريف » وبهذا يبدأ النهار .

* * *

٢

لم يطل مكثي في « الكتاب » لأن أمي أصرت على المدرسة . وكان أبي مشغولاً عنا بزوجة جديدة،وكان عمله يضطره إلى السفر إلى « استنبول » فكان يقضي هناك ما شاء الله أن يقضي ـ شهوراً أو عاماً أو قرابة ذلك ـ ثم يعود ومعه زوجة . وأحسبه كان يضطر إلى الزواج اتقاء من الإثم . ولكن الغريب أنه كان إذا احتاج إلى السفر مرة أخرى ، يحمل معه الزوجة ويسرحها هناك ويجيء بغيرها وأظنه كان يحب التركيات ويؤثرهن على سواهن ، وعسى أن يكون قد راقه منهن بياضهن وحسن التدبير والنظافة والطاعة والأدب ، فإن يكن ذاك فما ورثت عنه إلا نقيضه ، ولست أعني ـ كما لا أحتاج أن أقول ـ أني أحب الوساخة وسوء التدبير وقلة الأدب والعياذ بالله ، وإنما أعني أن اللون الأسمر آثر عندي وأحب إلي ، وأنه إذا اجتمعت اثنتان واحدة بيضاء والأخرى سمراء ، وكانتا من الحسن في منزلة واحدة ، فالسمراء عندي أجمل وأندى على القلب ، وعسى أن يكون هذا من التعصب لأمي ولنفسي ، فإني أسمر ـ أو إلى السمرة أقرب ـ ولعلي أكره أن تزهى عليَّ واحدة ببياض جلدها ، ولكن هذا شطط فلأرجع إلى ما كنت فيه .

ولم تكن الزوجة الجديدة من استنبول وإن كانت تركية ، وكان لها ولد من زوج سابق ترك على أرنبة أنفها آثار أسنانه . ذلك أنه عض أنفها في ساعة من ساعات الغضب أو الجنون ، وكانت أسنانه نضيدة فتركت حزاً واضحاً . ولبعض الناس ولع بالأنوف في ساعة الغضب ، فقد كان لي قريب يتناول أنف زوجته إذا ساءه منها فعل أو قول ويهزه يمنة ويسرة فيدور رأس المسكينة ، وتتساقط دموعها .

ولم يهجر أبي (البيت الكبير) في سبيل هذه الزوجة الجميلة ـ فقد كانت جميلة والشهادة لله ، وكان الرجل معذوراً ـ ولكنه كان يقضي عندنا ليلة ، وعند هذه الزوجة ليلة ، فأما ليلته في البيت الكبير فكان يقضيها مطرقاً يسمع التقريع والتأنيب من جدي تارة ، ومن أمي تارة أخرى ، وكان عظيم الحلم ، طويل البال قليل الكلام ، فكان لا يزيد على الابتسام ، وهذا ما خالفته فيه أيضاً ، فإني أحمق طياش سريع الغضب حاد الطبع وثرثار لا يفرغ الناس من هذره ، ومن الإنصاف لأبي أن أقول إنه ما بين شغله بزوجته الجميلة وما يكابده في البيت الكبير فضلاً عن عمله المضني ، لم يبق له وقت يعنى فيه بنا نحن بنيه الصغار ، وكان لنا أخ كبير غير شقيق أذاق أبانا الأمرين وأراه النجوم في الظهر الأحمر ، ومن حوادثه التي تروى أنه كان يصلي الفجر في مسجد الحسين ، فخرج مرة إلى صلاة الفجر على عادته فألفى باب المئذنة مفتوحاً ، وكان المؤذن شيخاً هرماً ضخم الجسم ، كالفيل الصغير ، وكان أعمى ، فخطر لأخي أن يعابثه فصعد على أطراف أصابعه ووقف وراء المؤذن المسكين الذي لا يدري أن وراءه هذا الشيطان ، وانه ليرفع الصوت بالآذان ويصيح في سكون الليل (حي على الصلاة) وإذا بصوت من ورائه يرتفع فجأة ويصيح متمماً (حي على الفلاح) فريع الرجل وله العذر ، وكان ضخماً كما قلت ، وعلى

صدره قنطار من الشحم ، وكانت صدمة المفاجأة عنيفة فسقط مغشياً عليه وميتاً على قول ، ولم يضطرب الأخ المحترم بل أتم الآذان وانحدر إلى المسجد للصلاة ثم احتال فأغرى خدم المسجد بالبحث عن المؤذن المسكين وانصرف هو إلى بيته قرير العين راضياً عن نفسه ونام نوم الصالحين .

وكان أبي في وقت من الأوقات مدرساً للغة العربية في المدرسة الخديوية فألحق بها ابنه ليكون تحت عينيه . فكان هذا الابن البار هو الذي زهد أبي في التعليم فنفض يده منه واشتغل بغيره ، ولم يطل بقاء أخي في هذه المدرسة فقد طردوه فأدخله أبوه مدرسة صناعية ، أو زراعية لا أذكر وكان يبيت فيها فصار يغري الطلبة زملاءه بالخروج في فحمة الليل ، وكان يربط البطاطين بعضها ببعض ، ويدليها من النافذة ويتخذ منها هو وزملاؤه حبلاً يتعلقون به ، ويتدلون وبه يصعدون أيضاً حين يعودون مع « الديكة » وظهر الأمر فاشتجر أخي مع ضابط المدرسة ، وتماسكا وتضاربا فانكسرت رجل الضابط ولا آخر لحوادث هذا الأخ وقد ظل إلى آخر لحظة من حياته مولعاً بالعبث .

وكنت في السادسة أو حوالي ذلك لما أخرجتني أمي من « الكتاب وبعثت بي إلى مدرسة عجيبة الحال ، تمهيداً لإدخالي مدرسة حكومية ، ذلك أنها كانت مدرسة بنات ، ولكن فيها « فصلاً » واحداً للصبيان ، وكانت صاحبة المدرسة « خياطة » ومن هنا معرفة أمي بها ، وإرسالي إليها وكان يساعد هذه السيدة رجل قصير نحيف ولكنه غليظ الكبد ، وكل ما أذكره أننا لم نكن نرى البنات أو نختلط بهن ، بل كنا نوضع في حجرة ضيقة ، توصد علينا بالمفتاح ، فكانت هذه الحجرة هي المكان الذي نتلقى فيه الدروس وهي الساحة التي نلعب فيها ، وإليها يجيئنا طعامنا ظهراً وكنا إذا تركنا المعلم نزحزح الأدراج عن موضعها .

لنفسح مكاناً لنا ونحن نتقاذف الكرة أو نجري « البلى » على البلاط ، وما أكثر ما كسرنا زجاج النوافذ وغرم آباؤنا ثمنه .

وكان مساعد المديرة رجلاً فظاً كما قلت ـ إذا أخطأنا أو قصرنا ـ يأمر الواحد منا أن يخلع الطربوش ثم يضربه على رأسه العاري بالخيزرانة وكنا في الفصل سبعة أو ثمانية ، فحدث يوماً أن أوسعنا ضرباً على رءوسنا فثرنا به من فرط الألم ، وتمردنا عليه وأشبعناه لكماً وركلاً ، ومزقنا له سترته الطويلة ـ الاستانبولية ـ وخطفنا العصا من يده وأذقناه وقعها على أصابع يديه وعلى ركبتيه ولا أحتاج أن أذكر أننا طردنا وأن المدرسة استغنت بالبنات الوديعات عن الصبيان الملاعين .

وكان ابن زوجة أبي معي في هذه المدرسة ، فلما طرد كما طردت ، وكان الوقت قبل الظهر خاف أن يذهب إلى أمه بالخبر ، فأشرت بأن لا يفعل ، واقترحت أن نبحث بقية يومنا عن مدرسة أخرى ندخلها ، فنخرج من هذا المأزق ، فوافق ففعلنا ، واهتدينا إلى مدرسة في شارع « تحت الربع » أو « درب سعادة » لا أذكر ، وكان من الغريب أن صاحبها قبلنا بلا كلام أو سؤال أو مراجعة .

وبعد نحو أسبوع عرف أبي ما كان ، فلم يقل شيئاً ولكنه أخرجنا من هذه المدرسة وألحقنا بمدرسة أخرى في شارع محمد علي ، على مقربة من القلعة وتسمى مدرسة « القرشوللي » وأظن أن زوجته هي التي هدته إليها وأشارت بها ، فقد كان صاحبها تركياً ، وفي هذه المدرسة كان الضابط ـ وهو تركي أيضاً ـ يجلدنا بالسوط ، ولا نكران أنه كان يترفق بالصغار أحياناً ولكن السوط كان في يده ، وكان يكفي أن يلمسنا بطرفه وقد بقيت بهذه المدرسة إلى آخر العام واجتزت امتحانها ، ولكن صاحبها أبى أن ينقلني إلى « فصل » أرقى ، لأني صغير السن ، فبقيت

في السنة الأولى عاماً آخر بلا موجب سوى حذلقة هذا المدير أو الناظر الذي استضأل جسمي واستصغر سني ، واستكثر عليَّ السنة الثانية من أجل ذلك .

وكنت أعود عصر كل يوم فأرمي كتبي وكراساتي ، وأخرج إلى الشارع لألعب مع أقراني ، فأزجر عن اللعب فأصعد وأطل على اللاعبين من الشرفة ، وبي حسرة ولهفة . وأسمعهم يصفونني ، « بالعقل » و « الهدوء » فألعن « العقل » وأذم « الهدوء » فقد كنت مكرهاً على ذلك لا مدفوعاً إليه بطباعي وميولي ، ومتى رأيت طفلاً ساكناً قليل الحركة ، فاعلم أنه مريض أو ضعيف أو ممسوخ ومتى يلعب الواحد ويجري وينط إذا لم يفعل ذلك في طفولته ؟

ويدخل الليل فأجلس قريباً من المصباح وأفتح الكتاب وأقرأ خوفاً من السوط لا رغبة في التعليم ، ويراني أبي فيشفق على عيني أن تؤذيهما القراءة في الليل ، فينهاني عنها ، فأطوي الكتاب وأسكت ، وأضيق ذرعاً بهذا الصمت ، فأفتح فمي وأهم بكلام فينهاني أبي وينهرني ، ويقول لي : « لا تقاطع الكبار ، ولا تحشر نفسك معهم » فأقول إنه ليس هنا صغار أحشر نفسي معهم فمع من أتكلم ؟ فيعبس ويضع أصبعه على فمه ، فأسكت ثم ينفد صبري فأعود إلى الكلام فيقول لي ألم أقل لك إن هذا الكلام لا يليق . فأعترض بأنى أراه يتكلم وأرى أمي تتكلم فلماذا يليق بهما مالا يليق بي ؟ فيبتسم ولا أدري لماذا . ويربت لي على كتفي وخدي ، وقد يقبلني ويمسح لي شعري ، فأتململ وأقول له إني أريد أن أتكلم وألعب فمع من ؟ ! بنت الخادمة لا يليق أن ألاعبها لأنها بنت ، وأخي أصغر مني بأربع سنوات وهو على كل نائم .

فتحملني أمي إلى الخادمة ، وتوصيها بي ، وتتركني معها ، فتسري

عني بحكاياتها وأحاديثها حتى يغلبني النعاس .

وكنت أرى أبي يدخن وهو متكئ بكوعه على مخدة فيتلوى الدخان في جو الغرفة ويتلوى خياله على الحائط ، فأتتبعه بعيني تارة ، وبأصبعي تارة أخرى . واشتهيت مرة أن أقلد أبي : فجئت بورقة ولففتها على صورة السيجارة وجعلت أضعها في فمي وأنا متوكئ على الوسادة وأنفخ كما يفعل أبي ، ولكنه لم يكن هناك دخان يتصاعد ويتلوى ، فأشعلت عود كبريت وأضرمت النار في اللفافة واتفق أني وضعتها على الوسادة فاتصلت بها النار وامتدت إلى حشوها من القطن تحت الكسوة ففزعت وخرجت أعدو ، واختبأت وبعد قليل كانت النار مندلعة في البيت ، وكان كل من في البيت يجري بالطشوت والأباريق والقلل لاطفاء الحريق فلم يجد ذلك شيئاً وامتدت النار إلى غرفة أخرى ولم تكن شركة الماء قد مدت أنابيبها إلى البيوت . وكان السقا يمر بنا كل يوم فيملأ لنا الأزيار والطشوت وما إلى ذلك من الأوعية وكانت وسائل الاتصال بطيئة ، ولا سيما في الأحياء الوطنية ، فلا تليفون ولا ترام ولا سيارات ولا شيء إلا الدواب ومركبات الخيل وكانت إدارة المطافئ تتقاضى خمسة جنيهات إذا دعيت لإطفاء حريق . على أني لا أدري بماذا كانت تطفئ الحرائق ولا ماء هناك يجري في الأنابيب . فإذا قلت إن البيت احترق ، وأن الحارة كلها شبت فيها النار فلا يصدقني القراء ، والمثل يقول « يعملها الصغار ويقع فيها الكبار » أي والله .

* * *

٣

كان لأخي الأكبر زوجتان من قريباته تقيمان معنا في بيت واحد لهم: منه الدور الأوسط ، ولنا ، جدتي وجدي وأبي وأمي ـ الدور الأعلى ـ وللمكتب الغرف ـ أو المناظر ـ التي كانت في ساحة البيت ، أو فنائه . وكان أخي ـ كأبي ـ مزواجاً . فأما أبي لا أعرف لماذا كان هكذا ، فما أعرف في أسرتنا كلها من كانت له زوجتان في وقت واحد ، أو من طلق زوجته . أما أخي فقد يبدو من المستغرب أن يتخذ امرأتين في حياة أبيه ، وهو لا يكسب قرشاً بعرق جبينه ، ولا مورد له إلا ما يجود به عليه الوالد ، ولهذا يحسن أن أقول ، إن أباه زوجه وهو صغير ـ كما كانت العادة في ذلك الزمان ـ ليفرح به ، وكانت ليلة الجلوة ليلة سوداء ، أعني أن السرادق أقيم ، وأضيئت الأنوار ونشرت الرايات ، ومدت الموائد ، وراحت الموسيقى تعزف ، وشرع المغني يصعد إلى « التخت » وإذا بنبأ يجيء من سمخراط أن المرحوم إبراهيم أفندي الوكيل توفي فجأة ، فأطفئت الأنوار ، وانفض السامر وشرع الذين كانوا في جذل وسرور وحبور ، يتهيأون للسفر إلى المأتم .

ومضت سنوات فلم يعقب أخي نسلاً فقلق أبي ، وقال قائل إن الزوجة عاقر ، وقال آخرون قد يكون العقم علته من « الولد » فما العمل . ؟

العمل أن يزوجوه من أخرى على سبيل التجربة وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان وقد كان ، ولكن « الولد » ـ أعني أن أخي ـ ظل لا يعقب شيئاً ، ولم يفد من هذه التجربة ، إلا أنه صار ذا زوجتين .

وعلى ذكر العقم ، أقول إن أخي هذا وشقيقته ، عليهما رحمة الله ، من أخرى ماتت قبل أن يتزوج أبي أمي ، وقد شاءت الأقدار أن يكون نسلها عقيماً ، وأن يحرم إبناها ـ أخي وأختي ـ بعض زينة الحياة الدنيا وأن يقاسيا من جراء ذلك ما يقاسيه كل راغب في الذرية ، وكان بلاء أعظم ، فقد اضطرت أن تصبر على الحرمان ، وان تحتمل ما يبديه بعلها من اللهفة على البنين وأن تنصح له بالزواج ، فلما فعل ورزق طفلاً طلق أمه ـ أو ماتت لا أدري ، فتولت هي تربيته وتبنته وتعهدته وأولته ما انطوت عليه نفسها من عطف الأمومة المخنوقة وحفظ لها هو ذلك ، فكان أبر الناس في حياته وأحناهم عليها وأعمقهم حزناً لما وافاها الأجل .

واعود إلى أخي بعد هذا الاستطراد فأقول إنه كان على هذا لا يجرؤ أن يسهر ، أو أن يدخن أمام أبي ، فقد كان السهر والتدخين محرمين على غير جدي وأبي ، فأما جدي فكان يتخذ ما يسمى « الشبك » ـ بضم الشين والباء ـ وهو قصبة طويلة جداً نحو ذراع ونصف ذراع يتصل بآخرها شيء يحشى بالدخان وتوضع عليه الجمرة . وأما أبي فكان يتخذ السجاير ولكن ما كان مباحاً لهما ، كان محرماً على سواهما ـ لا أدري لماذا ـ وإن كان أخي ذا زوجتين .

وقد رأيت أخي مرة يدس السيجارة في جيبه وقد خرج عليه أبي فجأة فتحرق الجيب ، فيطبق عليه أصابعه ليخمد ما اضطرم .

وما أكثر ما كان أبي يضربه ، لأنه يسهر ، ويدخن ، ولكن العلقة

الكبرى كانت لما هو أدهى من السهر والتدخين . حدثني أخي بعد أن كبرت وأصبحت رجلاً مثله لي شاربان أفتلهما ولحية أحلقها ، قال : (لم يكن باقياً على العيد إلا بضعة أيام ، فخطر لي أن أقص شعري قبل أن أذهب إلى الحمام) - وكان أخي مغرماً بحمام السوق أو الحمام التركي ، يؤثره على ما عداه - وكنت قد مللت حلاقنا ، وكان شيخاً وقوراً له لحية كثة هائجة لا يعنى بتشذيبها وتقليمها ، وسئمت فوطته الحمراء المخططة ، والطشت الذي يضعه لي عند رقبتي ويترك لي حمله ، فيسيل الماء الذي يصبه على رأسي بلا حساب ، على ثيابي وينفذ إلى بدني ، فقلت ألتمس حلاقاً آخر ، وذهبت أجوب الشوارع وعيني على دكاكين الحلاقين ، حتى خرجت من الأحياء الوطنية ودخلت في الشوارع التي يكثر فيها الأجانب ، واهتديت إلى حلاق أجنبي ، فتوكلت على الله ودخلت فأقبل علي يرحب بي ، وأجلسني على كرسي وثير لا عهد لي بمثله ونشر على صدري فوطة بيضاء مكوية ، لها كمان يدخل فيهما ذراعاي ، وقص شعري ، ثم نفض الفوطة وجاء بغيرها وحلق لي ذقني بماء الكولونيا ، ثم راح يقترح علي أن يصنع كيت وكيت مما لم أكن أعرف مثل « الماساج » و « الشامبو » إلى آخر ذلك ، وأنا جذل أهز له رأسي أن نعم ، كلما عرض علي شيئاً من ذلك ، ثم قال : « مانيكور » فهززت رأسي موافقاً وإن كنت لا أعرف ماذا يعني ، فدعاني إلى ما وراء ستار ونادى فتاة شقراء حلوة لا أدري من أي الفراديس جاءت ، وقال لها كلاماً فابتسمت لي وتناولت كفي الكبيرة الخشنة التي يغطي ظهرها الشعر ، وعكفت على أظافري تنظفها وتقصها ، ثم تناولت شيئاً جعلت تدهنها لي به وأنا أكاد أموت من الخجل ، وصدقني حين أقول لك إن هذه أول فتاة غريبة لمست كفها كفي ، فإذا أضفت إلى هذا أنها ساحرة الجمال ، ذهبية الشعر ، وضاءة المحيا ، مشرقة الجبين ، نظيفة الأسنان ، وأن ابتسامتها فاتنة ، وفي صوتها

عذوبة تذيب المرء ، وأنها هيفاء ممشوقة ، وخفيفة لطيفة ، وأن في نظرتها ليناً يغري بتطويقها وضمها ، وأني ما عرفت من النساء إلا البدينات اللواتي يخنق روحهن ما عليهن من أكداس اللحم ـ إذا أضفت هذا كله ـ فإن في وسعك أن تدرك عذري حين أقول لك إني عشقتها . ولم أستطع أن أقول لها شيئاً .

وكنت أنظر إليها كالأبله ، ثم فتح الله علي ، وأطلق لساني من عقاله فقلت وأنا مضطرم الوجه من الخجل : إني لم أكن أدري أن المانيكور هو هذا ، وإني آسف فإن كفي كبيرة كالرغيف وعليها غابة من الشعر ، وأحسب أنه لا يليق بي أن أدعها تصبغ لي أظافري ، فإني أخشى أن أضطر إلى إخفاء يدي حتى يذهب هذا اللون ، وهممت بأن أنزع يدي من يدها ، فشدت عليها ولم تتركها لي ، وقالت بأعذب ابتسامة رأيتها في حياتي :

إنه يسرها أن تنظر إلى هذه الكف الكبيرة الخشنة ، وإن أكثر ما ترى من الأكف لين بض غض كأكف النساء ، فلم أدر ماذا أقول لها في جواب ذلك ، ولكني أنفت أن تصبغ لي أصابعي ، وأبيت أن أناولها يدي الأخرى وقلت حسبي واحدة ، وسألتها : متى يزول ذلك ؟ فقالت : « أوه ! إنه لا يدوم .. لا تخف » فاشتهيت أن أقول لها أني أحب أن أراها مرة أخرى ، ولكن لساني وقف في حلقي ، فلم أنطق بحرف ، واكتفيت بأن أمد لها يدي مصافحاً ، فوضعت فيها راحتها الصغيرة فهززتها كأنما كنت أصافح رجلاً فأدهشني أنها قالت :

« أرجو أن أراك » فكان جوابي السخيف : « ولكني لا أستطيع أن أقص شعري كل يوم » فابتسمت وخيل إلي أنها تكاد تميل علي وقالت :

« إني أخرج من هنا كل يوم الساعة السابعة مساء » ، قلت :

« آه ! إذا كان هذا فسأنتظرك على الرصيف الآخر .. كل يوم » .

قال أخي وهو يقص علي هذا الخبر : « وقد كان . تعلقت بها ، وصرت أراها كل يوم فنذهب نتمشى ، وعرفتني أشياء كثيرة لم أكن أعرفها ، ولو استطعت أن أتزوجها لفعلت ، وقد أطلعتها على كل شيء ولم أخف عنها شيئاً ، ففهمت وعذرت ، وبقينا صديقين حوالي عامين حتى خطبها واحد من أبناء جنسها ، وأحسست منها زهداً فيه ، فأقنعتها بالرضا به إشفاقاً عليها ، ورغبة في الاطمئنان على مستقبلها .

ولكن هذا موضوع آخر ، فلنرجع إلى المانيكور ، وكانت يمناي لسوء الحظ هي التي صبغت أظافرها ، فلما عدت إلى البيت وقابلت أبي تناولت يده لأقبلها ، فسألني :

ما هذه الحناء التي في أصابعك ؟ فأخبرته بما حدث ، وفي ظني أني لم أصنع سوءاً ، وما كنت أعرف ما هو المانيكور ، وقد قلت له : إني لما عرفت ما هو أبيت أن أصبغ أظافر يدي الأخرى ، ولكن وجهه أربد وهو يقول :

« وما فرق ما بينك وبين النساء الآن ؟ » ونهض فدعا إليه الخادم « العم محمد » كما نسميه وأسر إليه شيئاً فخرج ، وما لبث أن عاد ووراءه ثلاثة من الزبالين الأقوياء ، فأشار إلي فربطوني بالحبال ، وألقوني على الأرض ، وأنا من فرط الذهول لا أقاوم . وجاء أبي بخيزرانة طويلة وأهوى بها علي ، لا يتقي شيئاً ولا يبالي أين وقعت وماذا أصابت من بدني ولم ينقذني إلا خالتي (يعني أمي ، فقد كان يدعوها خالتي) فقد أسرعت وانحدرت إلي ولم تبال هؤلاء الزبالين ، ولم تعبأ بظهورها أمامهم سافرة وفي ثياب البيت ، وارتمت علي ، وجعلت

نفسها بيني وبين الخيزرانة فاضطر أبي أن يكف ولكنه أمر فسجنت في إحدى « المناظر » ثم خرج » .

وأتم أنا الحكاية فأقول إني توجعت لأخي وحزنت لما أصابه من الضرب الأليم ، وما هو فيه من السجن ولم يكن أحد يستطيع أن يصنع شيئاً ، وإلا حل به غضب أبي ، ولكني كنت طفلاً لا أدرك هذا إدراكه ، فصممت على إخراج أخي من محبسه وفك وثاقه . وكان لا بد من الحيلة ، ولكن الأطفال شياطين فدبرت الأمر مع أخي الأصغر ، وجليلة بنت خادمنا ، وكان مفتاح « المنظرة » مع الخادم فلم نزل به نلاعبه ونتحين منه غفلة حتى سرقت المفتاح ، وأوعزت إلى أخي وجليلة أن يبعدا به عن فناء البيت ففعلا ، ففتحت الباب وأعياني حل الحبال فجئت بسكين وقطعتها ، وأطلقت سراح أخي وقد ظل يحفظ لي هذا الجميل طول عمره .

وهنا ينبغي أن أذكر أني عدت إلى الخادم فدسست له المفتاح في جيبه وهو لا يدرك ولا يزال هذا الخادم حياً ولا يزال يتعجب لأخي كيف وسعه أن يقطع الحبال الغليظة التي كان موثقاً بها ، وأن يفتح الباب ويخرج ، وكلما ذكر هذه الحادثة ، هز رأسه وقال : الله يرحمه ! لقد كان عفريتاً » .

وكان هذا أول سر حرصت في طفولتي على كتمانه .

* * *

٤

قلت لنفسي بعد أن كتبت الفصول السابقة ، وسردت فيها بعض ما أذكر من عهد الطفولة ، «اسمع يا هذا ، لقد رأيت أباك يضرب أخاك ، ويلهب له جلده بالخيزرانة الطويلة ، ولم يضربك – كما كان يضربه لأنك كنت أصغر من أن تحتمل ذلك ، أو لأنك كنت أشبه بالقطة الأليفة أو كلب البيت الذي يقبل منه أصحابه العبث ولا يرضون عنه أو يسرون به إلا إذا لعب وتشيطن وأظهر لهم نشاطه وذكاءه ، أو لعل اتقاءه أن يضربك ويشويك بالعصا ، راجع إلى أن أمك حية ترزق ، وفي البيت معك وأن أم أخيك لحقت بمن غبر فلك دونه من يحامي عنك وأخوك كان قد بلغ مبلغ الرجال فكان أبوكما لا يسعه إلا أن يثقل عليه الشعور الخفي بأن هذا الشاب يزحزحه شيئاً فشيئاً عن مكانه : وينزله يوماً بعد يوم عن سلطانه ، وأنه هو الذي سيحل محله عاجلاً أو آجلاً ، كما حل هو محل أبيه – أي جدنا – وإن كان على قيد الحياة ، وعسى أن تكون بواعث الضرب لا هذا ولا ذاك بل تصادم الشعورين ، شعور الابن بأنه هو الشاب ، وأن أباه قد شيخ ، كائنة ما كانت سنه في الحقيقة وشعور الأب بأن إبنه هو إبنه فهو طفل بالغاً ما بلغ طوله وعرضه ، أو لا أدري ما العلة والباعث الصحيح ،

وانه ليخطر لي مائة تعليل وتعليل ولا أرى واحداً منها وحده يقنعني .

وخطر لي وأنا أحدث نفسي بهذا أن هذا التفـاوت بين الأب والابن من المصائب . فنحن الآباء ، قد كبرنا في نظر الأبناء ، ولا يمكن أن يعد الابن أباه إلا شيخاً هرماً ، تقضى شبابه من زمان طويل ، فلا يجوز له ما يجوز للشاب ويعقل منه ، ولا يليق به إلا حال الشيوخ الفانين ولو كانت الحقيقة أنه ما انفك قوياً كفئاً للحياة .

وذكرت ـ وأنا أدير هذا المعنى في نفسي ـ أني لم أسمع ولم أر قط ، في طفولتي ، شيئاً ـ كلمة أو إيماءة أو نظرة ـ تشي بالحب بين أمي وأبي . وكان يخيل إلي أن العلاقة بينهما قوامها الاحترام المتبادل أكثر مما كان قوامها الحب . وهذا خطأ ، ولكنه هو الذي كان يبدو لي في تلك السن الغضة . ولقد مات أبي وأنا صغير وخلف لي أمي فحزنت عليه اثنتين وثلاثين سنة ، لم تخلع فيها السواد يوماً واحداً ، وقد يكون هذا من الإكبار لا الحب ، ومن أجل ما طابت به نفساً في حياته ، ولكني أظنهما كانا متحابين أيضاً فقد كنت أسألها فتبتسم وتطرق استحياء ويضطرم وجهها حتى في كهولتها الذاوية ، وألح عليها بالسؤال فتنهرني ، وتزجرني عما تظنه عبثاً مني ، وكنت أغالطها أحياناً وأفاجئها بالسؤال على هذا النحو « ماذا كنت تحبين في هذا الرجل المـزواج المتعب الذي جعل حياتك معه جحيماً فائراً بالغيرة ؟ » فكانت تؤخذ على غرة وتقول ، قبل أن تفكر : « إنك لا تساوي الظفر الذي كان المقص يطيره من أصبعه » وتراني أبتسم فتدرك أنها اعترفت فتغضب أو تتكلف الغضب ، وأحياناً تطردني من مجلسها ، وهي تجاهد أن تعبس ويأبى وجهها إلا أن يضحك وتقول لي « قم . طيب قم . كفى قلة حيا . » فأنهض طائعاً وأميل على رأسها فأقبله فترضى عني وتدعو لي فأقول لها ويدي على الباب :

« اسمعي . لم أعرف أبي كما ينبغي أن أعرفه ، فقد مات قبل أن أكبر ، ولكن القليل الذي عرفته مضافاً إلى الكثير الذي سمعته منك ، يقنعني بأنه « هو » لم يكن يساوي الظفر الذي يطيره المقص من أصبعك وعزيز علي أن أقول هذا عن أبي ؛ فقد كان على العموم رجلاً فاضلاً ذا كرامة ، وإذا كنت أبخسه حقه فذاك لأنك عندي بمنزلة لا تدانيها منزلة . أنت خير الناس وسيدة الدنيا ؛ وكل من عداك هباء . واسمعي أيضاً . أنا أحاول أن أحيا حياة فاضلة لأنك معي في الدنيا . مجرد شعوري بوجودك يرفع نفسي ، ويعصمني من كثير ، وما هممت بشيء إلا رأيتني أسأل نفسي – هل ترضى عنه أمي لو علمت أو لا ترضى – فأقدم أو أحجم تبعاً لجواب السؤال . ولو خلت منك دنياي لما بقي شيء يصدني عن الشر والرذيلة ، ولست أطيق البعد عنك لحظة ولكني مقتنع أنه لو كان أبي حياً لما أمكن أن أحتمله ، ولا أطقت أن أعيش معه تحت سقف واحد ، ولعل ذاك لأنك – وأنت سيدتي – تدعينني أشعر أني أنا السيد ولكني أظن السبب أني أحبك وأجلك ، وأني مدين لك بكل ما جعلني كما أنا ، أطال الله عمرك .

ولكنه سبحانه ، لم يشأ أن يفعل .

كلا ، لم يكن للحب ذكر ، في بيتنا ونحن أطفال . ولكنه كان مع هذا موجوداً ، بين أبوي على الأرجح – وإن كنت أنا لا أرى دلائله ومظاهره ، وبين جدي وجدتي على التحقيق . وكان جدي قد قارب المائة ، وجدتي قد ناهزت السبعين ، ولكنهما كانا كالطلين ولم يكن أحلى من تناجي هذين القديمين اللذين ردهما الهرم إلى مثل حال الطفولة وسذاجتها وطيبتها ، وكانا لا يعبآن شيئاً بوجودي ، وهما كما يقول الشريف الرضى :

تساقينـــا التذكر فانثنينـــا ... كأنا قد تساقينا الطلاء

وكان الذي يتناجيان به سهل الفهم فقد كان قصصاً وحكايات قديمة . مما وقع لهما وجرباه . ولكن الحنو . وعذوبة الصوت . والذوبان . وحلاوة اللمعة في العين التي انطفأ نورها أو كاد ، واضطراب الشفتين إذ يقول الشيخ برقة : « هل تذكرين يا حاجة .. » فتهز رأسها المصبوغ بالحناء ويفتر ثغرها الأدردويومض السرور في عينيها ويشرق به وجهها الأحمر ـ فقد كانت بيضاء حلوة ـ وتقول (إيه) ممطوطة طويلة . ولكنها « آية » الرضى والحمد لله والاغتباط بجمال الذكرى . لا الأسف والأسى . فقد كان حب هذين المتهدمين من الدنيا ، إنهما معاً فيها . وأن غرفة واحدة تجمعهما . وأن لهما بنين وحفدة ، كلهم أحياء وبخير ولله المنة . وكنت أرى منهما ذلك فأدرك أنهما مسروران وإن كنت لا أدرك كنه السرور ، وأحس بفرحة غريبة بهذين الوجهين اللذين غضنتهما السن وحفرت فيهما أخاديد عميقة ، فأرتمي على جدتي وأطوقها وأقبلها ، فتضمني وهي تقول ضاحكة : « إوع تفعصني يا ولد » ثم تهوي على رأسي أو خدي بفمها الفارغ وتقبلني فيكون لقبلتها صوت كقولك « مق » .

وأنا الآن رجل . ولي زوجة وبنون ، لا بنات ، فقد أبت مشيئة الله أن يكون لي بنات على إيثاري لهن ، وأنا ابن هذا الزمن ، لا ذاك الذي عاش فيه أبي وجدي من قبله ومع ذلك أراني أستحي أن أقول لزوجتي أني أحبها ، وأشعر أنه لا يليق بي أن أقول ذلك ، ولي كل هؤلاء البنين ، وأحس أن زمن الكلام في ذلك قد فات وهو لم يفت في الحقيقة ، لكنا جربنا وعانينا وفكرنا ، فعرفنا ـ عرفنا ماذا يحق للمرء أن ينتظر لو نضب سحره ، وزالت فتنته ، وفقد الحب تلك القدرة على خداع النفس ومغالطتها وإيهامها .

ويا ربما قلت لنفسي ، حين أخلو بها وتتدفق خواطري في هذا

المجرى : «لماذا أخجل أن أقول لزوجتي أني أحبها ، أمام هؤلاء الأبناء ؟»
وأقول في جواب السؤال أن هؤلاء الأبناء يروننا كباراً ، ولا يتوقعون منا ما هو متوقع من الشبان ، ولعلهم يظنون بنا أننا كنا في صدر حياتنا كل شيء إلا شباباً ، ويهيجني ذلك ويثير نفسي فأقول ساخطاً معانداً : « ولكني لا أنوي أن أجعل حياتي وفق ما يظنون ، قاتلني الله إن فعلت ، وأدخل على زوجتي ويكون معها هؤلاء البنون وغيرهم من الضيفان – من الأهل أو الغرباء – فأتعمد أن أنثني بالحديث إلى ذكر الحب ، وأهم بأن أجري مع العناد ، فأحس كبح الخجل ، فأضطرب وأخرج من المأزق بمزحة ، فيظن السامعون أني أهزل ؛ وتعرف هي أني أجد .

فلا فرق بيني وبين أبي ، وإن كان بين زمنينا كل فرق وما زلنا نحس اللجام على أشداقنا ، والأعنة الخفية التي تصدنا وتلوي رؤوسنا ، وتوجهنا وجهة غير التي تدفعنا إليها طباعنا وغرائزنا ، وبعد عشر سنين من الزواج والألفة والحال الوثيق يحمر وجه الزوجة إذا همست في أذنها بكلمة حب أو لفظ يشي به وإن كان لا يصارح وما أعرفني استطعت قط أن أقول لواحدة أني أحبها بالغاً ما بلغ جنوني بها ، فإذا شق علي الكبح ونازعتني نفسي أن أقول ، قلت ولكن مازحاً ، أو متظاهراً بالمزاح متصنعاً له لأشككها ، ولأني أستحي أن أنطق باللفظ ، أو على الأصح لأني أشعر أني إذا قلت الكلمة فقد صرت عبدها – أعني عبداً للمرأة لا للكلمة – وأنها حقيقة إذن أن تتخذ مني حصاناً تركضه بين الوعور ، وأنا لا أطيق أن أحس بقيد ما ، ولو كان من حرير ، وما أحسست قط بقيد إلا نفرت وشردت وتمردت . وأنا في كل يوم أقيد نفسي وألزمها أشياء شتى ، ولا أزال قابضاً على اللجام أشده وأصرفه إلى هنا وهنا ، ولكن هذا لا يتسنى إلا إذا كان زمامي في يدي ، والأمر كله إلى إرادتي ، فإذا شعرت أن يداً أخرى تريد أن تقبض على الزمام

طار عقلي . وفقدت اتزاني وركبت رأسي ، وأكون واثقاً أن هذا خطأ ، وأنه عناد صبياني . وأني لو وكلت إلى نفسي ورأيي لما فعلت إلا ما يراد مني أن أفعل ولكن طبيعتي تغلبني فأشقى ، بين دعـوة العقل العاجز ودعوة الطبع الجامح .

والناس لا يضربون بنيهم في هذه الأيام كما كان أبي يضرب أخي . وهم في هذا على حق ، فإن الضرب ليس تأديباً وإنما هو ترفيه عن الوالد ، ووسيلة لإراحته من ثقل الشعور الذي يجيش بصدره ، فهو شيء ينفع الأب ولا ينفع الابن .

ودأب الناس في زماننا أن يترفقوا بالأبناء ويجنبوهم التنغيص ، وهذا جميل ولكني أحس أنهم يبالغون في الرفق ويسرفون في اللين ، ويجعلون حياة الطفل أرغد مما ينبغي وأخلى من المشاكل والعقد ، ومن كل ما يستدعي إجهاد الفكر أو ما يستثير الشعور ويوقظ النفس ، فليتهم يضربون أحياناً ـ برفق أيضاً ـ ولا بأس من أن يخرجوهم إلى العناد ويدفعوهم إلى التمرد ، ليعرفوهم بأنفسهم ويكشفـوا لهم عن بعض خفاياها .

جرى هذا ببالي وأنا أكلم شاباً في الثانية والعشرين من عمره ، ولم أكـن أعرف ماذا تعلم أو يتعلم وكان كلامنا في شيء من الهندسة فوافقني على رأي كان يعرف كما تبينت فيما بعد أنه خطأ محض فقد كان طالباً في مدرسة الهندسة وكان فنه ما خضنا فيه ، ومع ذلك لم يخالفني ، ولم يصحح لي غلطي ، فإذا كان هذا لا يضرب حتى يدمي جلده ويتسلخ ليتعلم احترام النفس وليفهم أن المخالفة ليست عيباً وأنها ليست من سوء الأدب بل من الواجب ما دام يعتقد أنه على حق ـ فمن غيره الجدير بالضرب . ؟ وكيف تكافح هذه النعومة وذاك التطري لتجعل

من ابنك رجلاً يعرف قدر نفسه ويكرم عقله ؟ أما أنا فسبيلي كسبيل أبي ، ولست أستعين « بالزبالين » ، ولا أنا أقسو قسوته ، ولكني لا أحجم عن قرص آذانهم ولكمهم إذا رأيتهم يجبنون أو يكذبون أو يبكون لغير « ما يبكي الرجل » . وقد جاءني واحد منهم وقال إن تلميذاً معه في المدرسة ضربه ، فسألته عنه أهو أكبر منه . ؟ وهل هو أضعف من أن يضربه كما ضربه . ؟ فكانت نعم هي جواب السؤالين ، فتناولت أذنه الصغيرة وقرصتها قرصاً وجيعاً وقلت له « ألم يكن في الشارع حجر تتناوله وتقذفه به فتفتح له قرنه . ؟ قال « بلى » قلت « لماذا تجيئني باكياً وفي وسعك أن تنصف نفسك منه ؟ » . وأنذرته أني لا محالة قاتله إذا تكرر منه ذلك ، ولم يكن القتل ما أعني ، وإنما عنيت الضرب الأليف ، وقد فهم عني الطفل ، وأثبت لرفاقه أنه كفء لهم ، فكفوا عنه وهابوه ، وقد احتجت بعد ذلك أن أجعل جرأته غير راجعة إلى مجرد الخوف مني .

أظن أن هذا خير وأهدى من هذه التربية الطرية التي تفضي إلى التخنث .

* * *

٥

حليمة وعم محمد

كان خادمنا رجلاً يدعى « عم محمد » لا يعرف أحد من أين جاء – حتى ولا هو يعرف ، وقد سألته من أي بلاد الدنيا هو ، فشوّر بيديه وهز رأسه ولم يجب ، ولعله نسي ، فقد علت سنه جداً ، والأرجح أنه جاء إلينا وهو صبي لا يفقه ، فقد كان لكل أسرة خادمها الذي نشأ وترعرع ، وشاب أيضاً ، في ظلها ، ولم يكن أحد ينضو عنه ثوب هذه العمومة إلا ثلاثة – جدي وأبي ، من الرجال ، وجدتي من النساء أما سائر أهل البيت فكان اسمه عندهم « عم محمد » وكان هذا بعض ما يكرم به الناس خدمهم في ذلك الزمان .

ولا أذكر كيف كان وجهه في حداثتي ، فإن مسافة الزمن بعيدة ، ولكني أنظر إليه الآن – فإنه لا يزال حياً يرزق – وأرى كيف كان يمشي معتدل القامة كالسيف ، يأبى أن يتخذ الترام أو غيره أو يقطع المسافات بين أرجاء القاهرة إلا على رجليه ، وكيف أنه لا يمرض ولا يرقد ولا يشكو شيئاً حتى في هذه الشيخوخة العالية ، وكيف أنه لا يزال يشرب « البوظة » التي أعرفه – مذ عرفته – كلفاً بها لا ينصرف عنها أو يتوب ولو قطعوا رأسه وأوصاله ، فيخيل إلي أنه كان دائماً هكذا – بشاربيه

الخفيفين . وأسنانه القوية التي لم تسقط ولم تتزعزع منها واحدة ، ووجهه المغضن الحافل بالأخاديد والحفر ، وحذائه الأصفر الباهت الذي يحرص مع ذلك على صقله فيمسحه بطرف المعطف العتيق الذي خلعته عليه منذ خمسة عشر عاماً ، ويأبى مع ذلك أن يبلى أو يتمزق .

وكان عمله مقصوراً على ساحة البيت وما فيها من غرف أو « مناظر » – كما كانت تسمى – وعلى قضاء الحاجات من السوق ، ولا يجوز له أن يصعد إلى حيث السيدات فإن لهن خادمتهن التي لا ينبغي لها تجاوز السلم إلى ساحة البيت ، وكانت حليمة هذه فتاة سمراء واسعة العينين مقوسة الحاجبين ، طويلة الأهداب وممشوقة رشيقة ، وكانت هي التي تنزل إلى عم محمد إذا احتاج البيت إلى شيء فتقف على آخر درجات السلم وتنقر على الباب فيجيء إليها ، فحدث ما كان لا بد أن يحدث – أحبها وأحبته .

وأقبل عم محمد يوماً على جدي ، وهو جالس على كرسيه في الدهليز وفي يده نبوته وشفتاه تتحركان بالتلاوة ، ووقف إلى جانبه يفرك كفيه ويتحين من الشيخ التفاتة إليه ، فلما فعل ، مال عليه وأسر إليه أنه يطلب يد « حليمة » فهش له الشيخ لأن الزواج نصف الدين ، ووعد أن يخاطب أبي في الأمر وأن يحمله على الموافقة .

وقد كان – تزوجا ، وصارت حليمة ، تنتقل في الليل إلى غرفة « عم محمد » في البدروم كما يسمى في مصر ، أو السرداب كما يسمى في العراق .

وقد جهزوها له بسرير وخزانة وصندوق أحمر ، وحصيرة ملونة وبساط قديم مما كان في البيت ، وكانت حليمة هذه قوية جليدة لا تفتر ولا تهن ، فكانت تعمل طول النهار وشطراً من الليل ، في البيت –

تكنس وتمسح وتغسل ، وتنفض وتشيل وتحط ، وترتب ، وتغربل وتعجن وتخبز وتساعد في المطبخ ،وتطلع وتنزل ، حتى إذا جاء وقت النوم انحدرت إلى « عم محمد » وبقيت معه إلى الفجر ، فتنهض لتوضئ الشيخ وتعد له « الشبوك » والقهوة .

وحملت حليمة ، فعظمت بطنها ، فأرادوا أن يترفقوا بها ، وأن يعفوها من عملها الشاق حتى تضع حملها ، ولكنها أبت وظلت تروح وتجيء وتشيل وتحط وتقوم وتقعد ، وهي مسرورة وزاد وجهها إشراقاً ولمعت عينها بنور البشر والجذل .

وكان جدي يصعد بعد الغروب بقليل . أما أبي فكان يترك المكتب ليصعد أو يخرج ، بعد صلاة العشاء ، وينصرف الكاتب ، ويوصد الباب ، ويصفق عم محمد فتطل عليه حليمة من إحدى النوافذ ـ فما بقي من هذا بأس بعد انصراف الرجال ـ فيسألها « عاوزين حاجة .. ؟ » فتستقر ثم تخبره ، ويطمئن فيخرج متسللاً ويغيب ساعتين أو ثلاثاً ثم يعود وهو يتطرح من السكر ، وكان لا يشرب إلا البوظة وكان جدي ينهاه ويعظه ، وأبي يضربه وهو لا ينتهي ولا يرعوي ، حتى يئسا من صلاحه فأهملا أمره وتركاه للأيام ، فلم تزده إلا حباً « للبوظة » .

وقد سألته مرة « ألا يمكن أن يزهدك شيء في هذه البوظة . ؟ »

فأجابني بسؤال « أهي حرام ؟ » .

قلت « من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم » .

فنظر إلي مستفسراً مستوضحاً فقلت أعني أنك أصبحت تفتى ، من طول ما عاشرت أهل القلم . ولكن قل لي . إنك تشربها منذ نحو سبعين سنة ، أفلم تسأمها . سبعون سنة طويلة . إن المرء خليق بعدها أن يمل

الحياة ، فكيف بالبوظة .. ؟

فقال معترضاً « سبعين سنة إيه يا سيدي » .

قلت « معذرة . لندع السن ، ولكن ألم تسأم ؟ » .

قال « لم يبق لي ما أتسلى به سواها . »

قلت « وحليمة » .

قال « حليمة ! الله يطيل عمرها ويخليها لأولادها ويبارك لها فيهم » .

فأقصرت ، وبودي أن أسأله « ألا يزال يحبها ؟ » .

وكانت ليلة أحياها « عم محمد » بالسهر في البوظة وهو آمن ، فقد كان جدي نائماً ، وأبي في بيت زوجته الأخرى ، فلما عاد وتطرح إلى غرفته ، ألفى حليمة راقدة ، ولكن عينيها مفتوحتان ، وإلى جانبها شيء مغطى بملاءة ، فوقف عند السرير ، ونظر إليها مستغرباً ابتسامتها وكانت عادتها أن تنهض له حين يدخل عليها لتكون في خدمته حتى ينام فلما طال تحديقه فيها ، نحت الملاءة ورفعت ما تحتها ، على كفيها ليراه ، فأفاق وذهب عنه خمار السكر ، وهوى على ركبتيه ، وأسند جبينه إلى مرتبة السرير وراح يبكي – بكاء الفرح لا الحزن ، فوضعت حليمة طفلتها ، وجلست ، ومدت يدها إلى رأسه لترفعه وتمسح له دموعه فتناول كفها ولثم راحتها ، ونظر إليها وقال .

« لو كنت أعلم لما خرجت » .

قالت « خروجك كان أحسن .. ماذا يصنع الرجل في هذه الحالة .. ؟ »

فسألها « كيف .. من كان معك .. ؟ »

قالت « لا أحد .. لم أخبر أحداً .. ما الداعي .. »

فدهش ولكنها ابتسمت ونهضت ، لتقوم بخدمته كعادتها ، وحاول هو أن يمنعها ، فسخرت منه ، وسخنت له الطعام وقدمته إليه ليأكل ، وكان لا يأكل إلا قبل النوم مباشرة ، وبعد أن يرتوي من البوظة فعكف على طعامه وهو يتعجب لحليمة وقوتها وجلدها ، حتى ليجيئها المخاض فتتشدد وتحتمل آلامه في صمت ، وتضع وحدها وبلا معين ، وبعد ساعة أو ساعتين ترجع كما كانت ، لا فاترة ولا متهافتة ولا مسترخية وجال بخاطره أن حليمة آية من آيات الله ، وأنه سعيد بأن تكون زوجته ، وحدثته نفسه ، على ما روى لي أن يجعل مظهر شكره لله وإقراره بنعمته عليه ، أن يكف عن معاقرة البوظة ، ولكنها كانت نجوى ليس إلا .

وقال لها وهو يمسح يديه في الفوطة « يجب أن تستريحي غداً على الأقل » فاستغربت هذا الاقتراح وقالت « استريح . أنت مجنون .. ! » .

ولم تسترح حليمة ولا دقيقة واحدة ، فكانت ترضع طفلتها وتتركها وتواصل عملها المتنوع .

ولا تزال حليمة إلى اليوم ـ وقد جاوزت الستين ـ أقوى وأقدر على العمل من عشر فتيات ، فليس أعجب من « عم محمد » إلا امرأته التي لا تكل ولا تفارقها ابتسامتها كأنها مرسومة ـ ابتسامة العطف والرضى والتسامح ، وما أكثر ما افتقرت إلى عطفها ، ورضاها وتسامحها ، وكان حسبي منها في كل حال أن تنظر إلي بعينيها النجلاوين ، وأن أرى ثغرها المفتر فتسكن نفسي ويشيع في صدري الاطمئنان ، ويعمر اليقين قلبي ، ولا يسعني إلا أن أجيبها بابتسامة ، فتهز رأسها على مهل وتربت لي على كتفي وتمضي .

صدق عم محمد فإن حليمة آية ....

٦

الحادثة الثالثة أن « جليلة » بنت حليمة وعم محمد ـ أكلتها النار وأنا أنظر إليها مسحوراً . وبعد سنوات وسنوات طويلات المدد ، قرأت أن نيرون أضرم النار في رومية ـ عروس الدنيا يومئذ ، ووقف على تلها في حاشيته المستهترة ، وفي يده قيثارته يعزف عليها ، وعيناه على الضرم المتأجج والدخان المتكاثف ، فاستطعت أن أفهم ، ولم يعيني أن أدرك سحر النار وفتنة هولها ، وكان الذي تمثل لخاطري وأنا أقرأ ذلك .. لا رومية وبناها العالية وقصورها الضخمة بل « جليلة » وقد ضربت النار عليها سرادقاً .

ولم تطلق المسكينة إلا صيحة جزع واحدة ، ثم وقفت كالتمثال ، وذهبت النار تأكل ما عليها من خفيف الثياب وتحيل جسمها الأسمر الطري جمرة مضطرمة .

وكنت واقفاً على سلم البدروم ـ مسمراً هناك ـ وعيني عليها لا تتحول عنها ، وفي مسمعي من اللهب الخفاق اللمعان مثل الدمدمة والتدويم ، وفي أنفي رائحة اللحم المشوي وعلى وجهي صهد الحر .

وكان الوقت شتاء ، والبدروم يكون في الصيف رطباً فكيف به في

زمهرير الشتاء .. وكانت جليلة قد سبقت أمها إلى هذه الغرف التي تشبه القبور ، فشرعت تضرم الفحم – أو السن كما يسمى تراب الفحم – في الموقد لتدفأ به ، ولم تكن عندها منفاخ تعجل به إيقاد النار وكانت ترتعد وتنتفض من البرد ،وكان مصباح الغاز مضاء ، فتناولته وانحنت به على الموقد ورفعت غطاءه النحاسي الذي يتدلى منه الشريط في الغاز ولم تر أن تنزع الزجاجة وتطفئ الشريط قبل أن تصب الغاز على الفحم ، فسال منه شيء على ثوبها وهي لا تدري ، أعادت الغطاء إلى مكانه من المصباح ، ووضعته إلى جانبها على الحصيرة وأشعلت عوداً وأدنته من البترول في الموقد فارتفع منه اللهب فجأة ، وكانت حانية عليه ، فردت وجهها بسرعة ، ونسيت أن تتناول المصباح وهي تنهض قائمة ، فانقلب المصباح واشتعل طرف الثوب الذي كان مسفسفاً بالبترول .

وليس هذا خيالاً أتخيله فقد رأيته كله بعيني ، وكنت قد غافلت أمي وحليمة ، وانحدرت وراء جليلة ، وفي مأمولي أن أجالسها وألاعبها وأسامرها قليلاً ، فقد كنت مشغوفاً بها ، وكانت هي تأنس بي وتهش لي ، ولا تضن علي بما تعلم – مما سمعت أو رأت أو خطر لها . وكنت على عتبة الباب ، وكنت أهم بأن أضع قدمي على درجة السلم نازلاً إليها ، فرأيتها تمشي إلى « الصفة » وتعود بالمصباح في يدها ، وألهمت أن أقف حيث كنت – على العتبة – فلم يفتني شيء من الفاجعة .

وألفيتها تهوي إلى الأرض ، والنار حولها ، فأفقت وارتددت راجعاً إلى ساحة البيت : ورحت أصيح ، وأزعق وأدعو من يسمع أن يدرك جليلة فإنها تحترق . وسرى الخبر سريان النار في الهشيم اليابس ، وكان أخي الأكبر في البيت ، فنزل مع النازلين ، ورأوا أن جليلة قد أكلتها النار ، فصار هم الجميع أن يطفئوا الحريق ، فقد امتد لسان النار إلى الحصير والسرير وسائر ما في الغرفة .

وكنت بينهم ، أروح وأجيء إلى حيث أراهم يروحون ، ومن حيث يجيئون ، ولا أعمل شيئاً ، وكانوا مضطربين وكان لغطهم كثيراً وعالياً ، وكان النساء يبكين ويولولن وفي أيديهن الطشوط والأباريق ، وأخي يتناولها منهن مترعة ويصب على النار ، ولا يفتأ يسأل عن « محمد » — « ابن الكلب » أين غطس في هذه الليلة السوداء ؛ ويتوعده بعلقة ، ويقول ليته كان هو الذي احترق ، وبقيت جليلة ، فتقول حليمة — عفى الله عنها « آه والنبي » . وترسل الصوت مجلجلاً في سكون الليل بالنواح على بنتها ، ولا تكف عن ذلك ، وعلى الرغم من الحرقات التي تعانيها لا تتوانى عن ملء الطشوت وحملها إلى أخي .

ورآني أخي كالكلب الذي لا يترك قومه ولا ينفك يجري معهم ويطوف بهم ويدخل من بين سيقانهم ويربكهم وهو يريد أن يعرب بخفة حركته بينهم عن مشاركته لهم فيما هم فيه ، فزجرني وطردني وأمـرني أن أصعد .

ولكني لم أطع — نعم نأيت عن البدروم ، ولكني بقيت في فناء البيت وكيف أصعد إلى فوق . وكل من في البيت قد ترك هذا الفوق إلى تحت .؟ وكيف أكون وحدي في مأمن من المخاوف التي كظوا لي رأسي بصورها فيما كانوا يقصون علي كلما أرادوا تنويمي .؟ كأنما كان خير ما ينيم الطفل هو هذه المفزعات ؟

وجاء أبي : فقد دعي من البيت الصغير ورآني في الساحة وحدي ، فأقبل علي يسألني بصوته الهادئ المتزن النبرات « أنت هنا » فبكيت .. كأنما فتح لي هذا السؤال منفساً فتفجر ما كان محتبساً فربت على كتفي ، ومضى عني إلى البدروم ، فألفى أهل البيت جميعاً جالسين على درجات السلم .

وكان لا بد أن تأتي الشرطة ، وأن يجري التحقيق ، وكانت النار قد أطفئت ، فذهب بي أبي إلى المكتب ولحق أخي بنا ، بعد أن غير ثيابه وهناك قصصت عليهما ما رأيت ، وكان الشرطي أخوف ما نخاف نحن الصغار ، بعد العفاريت والأمساخ ، وغير هذه وتلـك من المرعبات ، وكان الذي نعرفه هو أن العسكري عدو لدود لخلق الله ، وأنه مجعول للقبض عليهم والزج بهم في المحابس ، وأن « الكركون » ـ كما كنا نسمي مركز الشرطة ـ ليس أكثر ولا أقل من سجن فظيع ، وأن العاقل من يتقي أن يمر من أمامه ، فشرع أبي يذهب عني الروع ويطمئنني ، ويروضني على السكون إلى لقاء هؤلاء الشرطة وغيرهم ، ويفهمني أنه ليس علي أكثر من أن أروي لهم ما رأيت ، ويؤكد لي أني سأكون موضع عطفهم ، وأني سألقى منهم كل خير ، وأنه لن يصيبني منهم سوء ، فنسيت وذهلت عن النار التي اشتوت بها جليلة ، وعن فجيعتي فيها ، ولم أعد أفكر إلا في هؤلاء الشرطة المخوفين الذين سأقف أمامهم وأسأل وأجيب ..

مضت على هذه الحادثة أربعون عاماً ، ولكني لا أرى أثرها يمحي أو يبهت ، وليس أبغض إلي ولا أقدر على إفزاعي وإطارة عقلي من النار ، ويمضي شتاء بعد شتاء ، ونحتاج إلى إضرام النار في الموقد للتدفئة فيسألني أهل البيت فأصيح بهم « يا خبر أسود ! ! لا لا لا .. حاذروا وترتفع قبل عيني جليلة « في سرادق من اللهب الخفاق .. »

ويلحون علي ويقولون أن البرد قارس ، فأروح أتفلسف وأقول لهم أنهم بله ، وأنهم يضعفون أجسامهم بتعويلهم في المقاومة على الثياب والنار ، وأن قدرة أجسامهم على المقاومة تزيد إذا خففوا ولم يسرفوا في التوقي ، ولم يجعلوا معولهم في التماس الدفء على شيء أجنبي منهم ، وأقول لهم أيضاً أني أضعف منهم جميعاً ، أنحف وأحوج إلى

وسائل الوقاية ، ولكني أحتمل ما لا يحتملون . فلماذا . ؟ لا سر هناك . كل ما في الأمر أني لا أكثر من الثياب ، ولا أتخذ المعاطف إذا وسعني أن أستغني عنها ، ولا أستعين بالنار . وأذكر لهم أني كنت في صدر أيامي ألف رأسي عند النوم في فوطة كبيرة وألبس ثياباً من الصوف حتى في وقدة الصيف المحرقة ، فكنت لهذا طول عمري مزكوماً ، وكان السعال لا يترك لي راحة في ليل أو نهار ، ثم ضاق صدري ، وحزنت على نفسي وقلت ، إذا كان هذا حالي في شبابي ، فماذا عسى أن أكون في الكهولة والشيخوخة .. وكان هذا يسود الدنيا في عيني ويغريني بالتشاؤم .

وكانت المرارة تقطر من قلبي على الورق ، في شعري ونثري ، ويئست فتمردت وقلت أنه لن يصيبني شر مما أعاني ، فخففت ، وصرت إذا نمت أخلع ثيابي جميعاً ولا أبقي منها إلا الكفاية للستر ، أي الجلابية ليس إلا ، وكان الأوان يسمح بذلك ، فقد كان الوقت صيفاً ، فلما جاءت مقدمة الشتاء ، وسعني أن أستغني عن الملابس الثقيلة التي اعتدت أن أتخذها ، ودخلنا في الشتاء فلم أشعر بحاجة إلى المعطف ، ولكن بقية من الحذر القديم جعلتني أحرص على حمله ، ولكن على ذراعي ، عسى أن أحتاج إليه في الليل . وكنت إذا شعرت بهذه الحاجة ، أظل أدافعها وأقاومها ، وأرجئ الالتجاء إلى المعطف والدخول فيه ، وأقول لنفسي « نصف ساعة آخر . لن يقتلني نصف ساعة من البرد » ثم أرجئ الأمر مرة أخرى وهكذا ، حتى أصبحت أحس أن المعطف حمل لا معنى له ما دمت لا ألبسه ، فصرت أتركه في البيت ، وأن لي الآن لمعطفاً ، ولكنه قديم .. قديم حتى لقد نسيت من طول عمره متى فصلته ، وهو للزينة أكثر مما هو للمنفعة ، بل ليس حتى للزينة ، فقد أكلت منه الفيران نحو شبر في شبر وخجلت أن أبعث به إلى الرفاء ، ولم أر أن أكلف نفسي ثمن معطف جديد لا ضرورة إليه فتركته ،

وأمري إلى الله ، وأمره إلى الفيران .

أما الشرطة فقد زايلني الخوف الصبياني منهم . فما يسع من يشب عن الطوق إلا أن يدرك أن الشرطة لا يملكون ضراً ولا نفعاً ، وأن الأمر فيهم إلى القانون وأنهم ليسوا أداة إرهاب ـ أو لا ينبغي أن يكونوها ـ بل أداة حماية للناس . ولكني مع ذلك أكره أن أدخل مركزاً من مراكز البوليس وأنفر من الحاجة إليهم وأحب أن أستغني عن الالتجاء إليهم ولقد سرقت خادمة كانت عندي أشياء ـ أو هذا هو المرجح والذي تشير إليه القرائن جميعاً ـ فقلت غفر الله لها ولا أحوجنا إلى البوليس ، وهنيئاً لها ما أخذت ولا عذبها الله به ، فما هي بعد كل ما يقال فيها إلا مسكينة ، وهل ينفعها ما حملت إلا قليلاً . وسينتهي بها الأمر إذا اعتادت ذلك ، إلى الشقاء المحقق ، فهي أحق بالعطف ، وأولى بالرحمة ولو أنها لم تهرب بما حملت ، لحاولت أن أعالجها وأن أفيء بها إلى الخير ، ولكن الأمر خرج من يدي بفرارها ، فالله هو القادر على إنقاذها من ذلك المآل المخيف الذي أتوقعه لها .

ولي بين رجال البوليس معارف وإخوان أحبهم وأكبرهم ، ولكني لا أحب أن أحتاج إليهم ، ولست أكره مجالسهم ، ولكني أحس غضاضة حين أكون مع واحد من رجال « السلطة » وأحب أن يكون غيري مثلي ـ لا سلطان لهم على خلق الله . ولعل هذا بقية من أثر النشأة الأولى على أني لست على يقين من هذا فقد يكون لهذا الشعور علل أخرى خفية راجعة إلى آرائي ومزاجي .

* * *

٧

لا أعرف ما سر حبي للحى في وجوه الناس ، غيري ، ولكني أعرف أني ما رأيت قط لحية طويلة تتدلى كالمخلاة إلا نازعتني نفسي أن أجعل لها من أصابعي مشطاً . وقلما أرى الآن لحية تستحق أن أعبث بها ، فان الناس في زماننا يحلقونها أو يقصونها ، ولا يرسلونها ، اكتفاء بالمظهر واستغناء به عن الحقيقة الخشنة أو الشائكة ولن تجد أحداً في هذا الزمن يغضب إذا أحفى الحلاق له لحيته كما غضب شيخ من أصدقائنا كانت له لحية كثة منفوشة ذهب بها إلى برلين ليشترك في تشييع جنازة زعيم من زعماء الترك قتل هناك . وقد احتفظ بجبته وقفطانه وعمامته فكان كل من يراه يتوهمه من أفتك البلاشفة وأخطر الفوضويين . قالوا . فذهب به صديق له إلى دكان حلاق ، وذهب صاحبه يتمشى على الرصيف حتى يفرغ من هذا الأمر ، فما راعه إلا صياح وزعيق لا يكونان في برلين إلا من مثل الشيخ ، فارتد إلى الدكان فألفى الشيخ واقفاً وسط الدكان والفوطة على صدره وهو يرسل الصوت مجلجلاً بالعربية الفصحى والحلاق مبهوت فسأله صاحبه عن الخبر فقال « خبر ، أنظر .. » وأشار إلى خده الأيمن فنظر صاحبه فإذا الغابة الكثيفة اللفاء قد ذهبت بقدرة قادر ، ولم يبق إلا وشم ، على حين بقيت الغابة على خده الأيسر هائجة

كما كانت ، فلم يسعه إلا أن يضحك ، ثم عالجه حتى رده إلى الهدوء والسكينة وسأله (ماذا قلت للحلاق .؟) .

قال الشيخ . (أنه رطن لي ولكني فهمت أنه يسألني ماذا أبغي ، ولم أدر كيف أجيبه فأومأت إلى لحيتي وأشرت بيدي أن سوها ـ هه ـ أي بعض الشيء قليلاً جداً ، ولكنه لم يفهم فأجرى فيها الماكينة فذهبت بمعظمها) .

وسأل الحلاق كيف حدث هذا الغلط فقال أنه سأله عما يريد أن يصنع بلحيته ويقصه منها فأشار الشيخ إليها وقال (هاف) أي النصف فهو لم يجر عليها ولم يجاوزها ما طلب .

كلا ، لا يغضب أحد في هذه الأيام كما غضب صديقنا الشيخ ، إذا ما جار المقص على لحيته ، فيندر أن أنعم بمنظر لحية حقيقية ، أو تتاح لي فرصة للعبث بها وتمشيطها ، على أنه لا أسف ، فقد فزت من ذلك في حداثتي بأكثر من نصيبي العادل ، وكان حسبي لحية جدي . أفتل شعراتها أو أثنيها وأدسها في أذنه فينتفض ويصيح بي ويطردني فأذهب أعدو وأنا أكاد أموت من الضحك فلما مات جدي شعرت بأن خسارتي جسيمة ، وأني فقدت ما لا أرى عنه عوضاً ، ولكن الله كان أرحم وأكرم من أن يطيل عذاب الحرمان ، فقد جاء أخو جدتي ليعزينا ، فأمسكناه وكنت أنا أشدهم الحاحاً عليه وتعلقاً به ، وكان قصيراً فلحيته تبدو أطول مما هي في الحقيقة فتسليت بها أسابيع حتى كان يوم وكنا جلوساً على وسائد وحشايا مبعثرة على البساط وكان هو مطرقاً والسبحة في يديه ! وإذا به ينتفض قائماً ويعلن إلينا عزمه على السفر . فاستغربنا وسألته جدتي :

« ما هذه المفاجأة ؟ »

فقال « الحقيقة يا حاجة أني سمعت صوتاً كصوت أبي يدعوني » .

فزاد تعجبنا وقلنا « أبوك يا خال . ؟ أبوك يدعوك . ؟ كيف تقول ؟ أين أنت من أبيك وبينكما ركوب خمس ساعات في القطار . ؟ »

فقال « نعم يدعوني . لقد سمعت صوته واضحاً جلياً ينادي : يا عمر ولا بد لي من السفر فما أشك في أن به حاجة إلي .. »

وأصر على السفر ، وأبى أن يبقى ، فاستودعناه الله وأرسلنا معه « عم محمد » بالحقيبة إلى المحطة وفي مساء اليوم التالي جاءتنا منه برقية ينعي إلينا فيها أباه أي جد أبي .

ومن تمام القصة أقول أنهم تحدثوا فيما بعد بأن هذا الجد كان راقداً ثم اعتدل فجأة وأطلقها صيحة قوية « يا عمر » ولم يزد .

وكان هذا الجد معدوداً من القوم الصالحين ، وكان يلبس عمامة ـ كما لا أحتاج أن أقول ، فان الصالحين لا يكونون على ما يظهر إلا من أصحاب العمائم ولكن لفتها كانت خضراء ، لأنه شريف من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان السيد محمد هذا قوياً ، وقد احتفظ بقوته حتى في شيخوخته العالية ، فقد جاوز التسعين أو قارب المائة . ولم يركب في حياته قطاراً ولا تراماً ولا مركبة . وكان إذا زارنا في القاهرة يجيء على قدميه ، وعلى كتفه الخرج الذي في شق منه ثيابه ، وفي الشق الثاني هدية من التمر أو الجبن « الحلوم » أو غير هذا وذاك مما يرى أن يهديه إلينا . وكان أبي قد رزق قبلي بولدين ، ماتا ، فلما جئت أنا إلى الدنيا ، خاف أبواي أن أموت أيضاً ، وصارا يجزعان كلما أصابني برد أو غيره ، وأنى لهما أن يعلما الغيب وأن يعرفا أني ممن قيل فيهم أن « عمر الشقي بقي »

واتفق أن جاء هذا الجد المبروك فاستكتبوه لي حجاباً ، فخطط شيئاً في ورقة ، أو كتب آيات من القرآن الكريم ، لا أدري وطواها وأمر بها أن تغلف ونهى عن فتحها . وقال علقوها له على جنبه . فغلفوها في قماش للتنجيد ، أي لكسوة المراتب وبعثوا بها إلى حذاء ، ولم يكن حذاء في الحقيقة . وإنما كان رجلاً يصنع المراكيب فجلد الحجاب ، وجعل له عينين للخيط . وعلقوه لي فصار كالحجر فيما أحس حين أرقد على جنبي .

ولم يفارقني هذا الحجاب إلا بعد أن انتقلت جدتي إلى رحمة الله . حتى بعد أن كبرت ودخلت في مداخل الرجال وتزوجت ، كانت تصر على لبسه . وكنت أغافلها وأخلعه وأدسه تحت الوسادة . فإذا عرفت ذلك نظرت إلي نظرة أسف وعتاب وإشفاق . وكان لبس الحجاب يثقل على نفسي وكنت أنفر من ذلك نفوراً شديداً . ولكني كنت أقول لنفسي أن جدتي كبيرة السن وأنها فجعت في إبنها وأنها تجزع كلما خطر لها أنها قد تفجع في حفيدها الذي تتعزى به ، فماذا علي لو أرضيتها وسررتها وتركتها تقضي ما بقي من عمرها في راحة واطمئنان . ثم أني ما أحببت أحداً قط مقدار حبي لها ولأمي فكنت أشعر أن قلبي تعصره يد قوية غليظة حين أرى على وجهها آيات الفزع . ومن أجل هذا استخرت الله وتوكلت عليه وتركتها تفرح وتطمئن بالحجاب على جنبي ، كانت إذا رأتني مقبلاً عليها لتحيتها كالعادة تبتسم لي بفمها الأدرد ، وتمد يدها إلى جنبي لتحسسه ، فأضحك وأقول « لا تخافي ، إنه ما زال في مكانه ، وما أبقيه إلا لأنه يسرني أن أراك راضية قريرة العين » فتمسح لي رأسي وتدعو لي بخير .

فلما ماتت ، تركت الحجاب . وكانت أمي تقوم في أول الأمر مقامها في الإلحاح على أن أحتفظ به فقلت لها يوماً « يا ستي . إنك عاقلة ، فبيني لي لماذا ينبغي أن ألبس هذا الحجاب ؟ » .

قالت : « إنه بركة من جدك » .

قلت : « صدقنا وآمنا . وأنعم بجدي وأعظم ببركته . ولكن ما جدوى أن أضع حجراً . »

فأطرقت فقلت : « أنا أعلم أنك تخجلين أن تقولي أنه يقيني السوء ويحميني من الموت لأنك أعقل وأذكى من ذلك . أليس الرب واحد والعمر واحد ؟ أليس ما قدر يكون ؟ » .

قالت : « آمنت بالله » .

قلت : « كنت أعلم أنك ستوافقين على اطراح هذا الحجاب ولكني أحب أن أحتفظ به للذكرى فاحفظيه لي عندك » .

فأخذته ، وبقي عندها مصوناً حتى ماتت فقيل لي أنهم وجدوا حجاباً بين أشيائها . وسألوني ماذا يصنعون به .. فأوصيت به أن يحفظوه فإنه أثر له تاريخه الطويل وصلته الوثيقة بأقوى العواطف الانسانية ففعلوا ، ولكني لم أطلب أن أراه ، والحق أقول أني لم أقو على النظر إليه يومئذ ، فقد كان موت هذه الأم الصالحة أوجع ما أصابني في حياتي وأعمقه أثراً في نفسي ، ولقد أبيت إلا البقاء في البيت الذي وافاها الأجل فيه ، لأن كل ما فيه يذكرني بها ولكني كدت أجن ، فقد كنت أتشدد وأظهر الجلد ، ولكني كنت أراها في كل مكان ، وأبصرها تروح وتجيء وأسمع صوتها ، فكأنها لم تمت وان كان غيري لا يعرف ذلك ولا يفطن إليه ، وتلفت أعصابي فكانت هذه الخيالات تسرني أحياناً ، وأحياناً أخرى تفزعني فاضطرب وأرتعد ، وثقلت علي وطأة الهواجس والوساوس وطال الأمر فلم أر علاجاً أحسم به هذا البلاء إلا أن أفارق البيت ، وأنأى بنفسي عن مواطن الذكرى ومثارها على قدر الامكان ، وأقول على قدر الامكان لأن المرء يستطيع أن يهرب من بيت أو بلد ولكن أنى له يهرب من نفسه .

٨

بعد وفاة جدي أدخلني أبي المدرسة القربية ـ لقربها من حينا ، وإمكان الوصول إليها بلا حاجة إلى قطع الشوارع التي يجري فيها الترام « الجديد » والتعرض لأخطاره ، فقد كانت ضحاياه كثيرة في تلك الأيام .

وكانت للمدرسة بوابتان ـ واحدة على شارع القربية ـ أي صانعي الخيام . وكانت رحيبة ولكنها عتيقة جداً . وقد بقيت بها أربع سنوات . ولا أذكر أن أحداً خطر له أن يجعل لأبواب الحجرات فيها مشابك ، فكان المعلم إذا أراد أن يترك الباب مفتوحاً ، يجيء بحجر يسند به الباب . ولكن كان للحجر منافع أخرى لبعض المعلمين وأخص بالذكر منهم شيخاً أعور كان يعلمنا « الخط » فإذا أساء أحدنا الكتابة أو تشاغل عنها بالكلام أو ضحك أو لعب ، أو فعل غير ذلك مما يفعل الصبيان ، ناداه الشيخ ودق له أصابعه بهذا الحجر .

ويكفي للتعريف بالمدرسة أن أقول أن ناظرها كان « وقفاً » عليها وكان الكبار منا يروون عنه أنه كان يقول عن نفسه أنه « جاهل جاهل ، لكن إدارجي » ـ أي إداري . وأنصفه فأقول انه كان

رجلاً طيباً . وأنه لم يسيء قط إلى معلم أو تلميذ أو فراش ـ أي خادم ـ وقد أنعم عليه في السنة التي دخلت فيها مدرسته ، برتبة بك من الدرجة الثالثة وهي لا تخول لصاحبها لقب البك ولكنه فرح بها وانتحل اللقب وصار يغضب إذا لم يطلقه عليه مخاطبه . وقد جمعونا يومئذ صفوفاً في ساحة المدرسة ، وأبلغونا خبر الإنعام على « سعادة البك » وهتفوا فهتفنا وراءهم « أفندي مزشوك يشا » وهي عبارة تركية معناها الحرفي « يعيش أفندينا كثيراً أو طويلاً » .

وكان الناظر جارنا فهو يعرف أبي ، ولهذا كان يسميني « ابن عبد القادر » ولكنه كان أخنفـاً فكان ينطق الباء ميماً فيما يخيل إلينا . وكنت على صغري قد فطنت إلى مواطن الضعف في نفسه .

وأدركت أن « سعادة البك » مفتاح كل باب مغلق ، فلا يكاد يسمعني أقول له « يا سعادة البك » حتى يهش لي ويهز لي رأسه راضياً ويعفو عن ذنبي أو يجيبني إلى ما أطلب . كنت دقيق الجسم صغيره جداً ـ وما زلت كذلك إلى اليوم ـ ولكني كنت حركة دائمة فكنت لهذا لا أطيق الجلوس ساعة كاملة على تلك المقاعد الخشبية الناشفة . وكان قلقي واضطرابي يثقلان على المعلمين فيضربونني أو يشكونني إلى الناظر فتنجيني « سعادة البك » من العقاب .

وكان معلمنا في السنة الأولى شيخاً قصيراً عظيم الوجه مغضنه جاحظ العينين واسعهما ـ وكان وجهه الضخم فيما يبدو لي ـ في حجم صدره . وكان يعلمنا القراءة والكتابة والخط والحساب ويحفظنا القرآن . وكـانت لنا ألواح من الخشب نكتب عليها الآيات الكريمة بالحبر ، ثم نعود بعد حفظها فنمحوها بالأسفنجة ونكتب غيرها . وهكذا . فجمع الشيخ منا ملاليم اشترى بها « ماجورا » أخضر كان يملؤه ماء لنغمس فيه الاسفنج

ونمسح الألواح . وكانت أدراجنا دكة كبيرة تسع ستة من الصبيان تتصل بها أدراج بعددهم . وكانت قديمة مفككة وقوائمها متخاذلة ولم يكن من النادر أن تقع بنا فنتصايح ونضوضئ ، فيخف إلينا الشيخ ويرى أن الدكة قد تفككت فيخرج ثم يعود بالمسامير يدقها فيثبت القوائم والأرجل في مكانها من مقعد الدكة أو لوحها .

وكانت حجرتنا هذه تطل على حجرة المعلمين وكان كثيراً ما يتفق أن يكون الشيخ قد خرج من بيته على ريق النفس فينادي الفراش ويناوله قرشاً فيشتري فولاً مدمساً وزيتاً ورغيفاً ومخللاً . ويضع له ذلك كله على النافذة التي بين الحجرتين ويظل الشيخ متردداً بين طعامه ودرسه حتى يفرغ من الأكل . وكان ربما نطق وفمه محشو ، فنضحك ، فلا يبالي . فقد كان حليماً رحيماً لا يقسو علينا ولا يعنف بنا ، وأحياناً يلمح الناظر مقبلاً من بعيد فيشير إلى أحدنا وهو يحاول أن يبلع اللقمة العظيمة ويتكلم في آن معاً ، ويدرك الصبي مراده فيتخطى النافذة إلى حجرة المعلمين وينقل إليها ما بقي من طعام الشيخ ثم يرتد ـ وثباً من النافذة ـ إلى مقعده ويمر الناظر بسلام ، فيقول الشيخ لأحدنا ، وهو يشير إلى النافذة « هات . هات » .

وكانت ساحة المدرسة واسعة جداً ، فكنا في أوقات الفراغ نتبعثر فيها ونلعب ما بدا لنا أن نلعب ـ الكرة أو سواها ـ وكنا نتخذ الكرة من الجوارب القديمة أو من بذور « ثمر الدوم » وهو ثمر ليفي قليل الحلاوة ولكن نواته عظيمة تصلح أن تكون كرة صغيرة نتقاذفها أو نضربها بأرجلنا .

أما فريق كرة القدم ، فكان شيئاً رهيباً . ذلك أن أعضاءه جميعاً رجال كبار . وكان بعضهم لا يعد تلميذاً بالمدرسة إلا على المجاز . وأذكر أن الناظر جمع من تلاميذ المدرسة نفقات التعليم لأحدهم ، وكان

لاعباً مشهوراً ، وكان اسمه « سليمان » ولكنا كنا ندعوه « سيلي مان » لأن وجهه كان أبيض مشرباً بالحمرة كوجوه الانجليز . وكان يدخن « البيبة » فما كنا نراه إلا وهي بين شفتيه ولا أدري ماذا كان مبلغ علمه بالانجليزية ، فقد كنت صغيراً . ولكني أدري أنه كان يتكلف رطانة كرطانة الانجليز . وكان له زميل في فريق الكرة اسمه « أبو تيفه » - أي توفيق - وكنا نحن الصغار نسمع أنهما لا يلعبان إلا إذا شربا خمراً . فأما « سيلي مان » فلا يبعد أن يكون هذا شأنه ولكني لا أصدق أن « أبا تيفه » كان يفعل ذلك أي يسكر قبل اللعب ، فقد كان وديعاً كريم الشيم ، وهادئاً رزيناً . ولا نكران أن هذا لا ينفي الولوع بالشراب ، ولكني لم أر الرجل قط - فقد كان رجلاً لا صبياً مثلنا خارجاً عن طوره ، لا في ساحة اللعب ولا في المدرسة . وبعيد فيما أرى أن يكون مثله سكيراً .

وكانت للمدرسة عناية خاصة بطعام فريق الكرة ، فكانت مائدتهم حافلة مثقلة ، بل كانت المدرسة تشتري لهم « المخلل » في سلطانيات صغيرة لتشحذ رغبتهم في الطعام وكان عملها هذا يستدعي منها التساهل مع بقية التلاميذ ، فكان كل من معه قرش منا يقف عند حاجز البوابة قبيل وقت الطعام وفي يده القرش أو الملاليم ويصيح بعم أحمد « الطرشجي » هكذا « هات شوية بنكلة » أو بأكثر أو أقل ، فيناوله سلطانية فيها ما طلب فيرتد بها ، ويظل يحملها حتى يدق الجرس فيدخل بها حجرة الطعام ، ولم أر مثل هذا في مدرسة أخرى من مدارس الحكومة .

* * *

٩

مرض أبي بعد شهور قليلة من دخولي مدرسة القربية الحكومية ، وصار كل من في البيت يلغط بأن زوجته التركية سمته ، أو هي لم تسمه ، وإنما دأبت على إطعامه لحم الأرنب بعد أن يعالجه رجل مشعوذ ، بما لا يعرف أحد ، ليحبب أبي في هذه الزوجة ، ويبغض إليه أمي ، وكان أبي يعتقد أن هذه خرافات وأباطيل ، وأنها مما يلفقه الخيال بتأثير الغيرة ولكن أمي كان قد أصابها سقم شديد واضطراب عصبي عنيف فعني أخي الأكبر بما أشيع من أن هذا بعض ما جره سحر المشعوذ عليها ، فراقب بيت هذه الزوجة التركية فرأى يوماً شيخاً يدخل ، فتبعه من حيث لا يشعر فصعد الشيخ إلى غرفة فوق السطح ، وأوقد ناراً ، وذبح أرنباً ، وكتب على لحمه كلاماً وعلقه في الهواء ، ورمى في الموقد بخوراً فأطلقه وراح يقرأ ويعزم ، وأخي يرقبه ، ثم خطر له أن يطلع أبي على ذلك فأغلق عليه الغرفة وأوصد باب البيت أيضاً وحمل مفتاحه معه وذهب فجاء بأبي وأراه ما رأى فشق الأمر على أبي فطلق المرأة .

ولكنه مرض بعد ذلك لا أدري بماذا ، ولزم البيت بضعة شهور كان الطبيب يعوده فيها كل بضعة أيام مرة ، ولكنه كان فيما يبدو لي صحيحاً معافى ، لا سقم به ، فقد كان يشرب القهوة على عادته ، ولا

ينفث يدخن سجائره المألوفة ويأكل طعامه المعهود ـ السمك المسلوق والأرز والفاكهة ـ وكل ما تغير من أمره واختلف من حاله أنه كف عن النزول إلى المكتب . وأن الكاتب وأخي كانا يصعدان إليه بالأوراق فيطلع عليها ويشير بما يرى .

وعدت من المدرسة عصر يوم . فلقيني الكاتب على الباب وسألني « أين عم محمد » فقلت لم أره . فأخبرني أنه ذهب ليجيء بي من المدرسة لأن أبي يريد أن يراني فيظهر أنه ذهب من طريق وعدت أنا من طريق .

ودخلت البيت فألفيت في فنائه نفراً من أقاربنا جلوساً على الكراسي فسلمت فقال أحدهم « اصعد . اصعد . أبوك يطلبك . »

فلم أفهم ، وصعدت على مهل ، ودخلت على أبي ، وأنا أنتظر أن أراه قاعداً على « الكنبة » فإذا به راقد على مرتبة مفروشة له في وسط الغرفة ، وعند رأسه مصحف ، فأدرت عيني في الغرفة ، فألفيت النساء من أهلي قاعدات حول المرتبة ، مطرقات ، وفي أيديهن مناديل ، يرفعنها إلى عيونهن ويكفكفن بها الدموع ، فنظرت إلى أبي ، فأشار إلي بعينيه فانحنيت عليه فقبلني ، ونهضت ، وأنا غير فاهم وهممت بأن أدور وأخلع ثيابي ، وإذا بالنساء يصحن ويولولن ، وإذا بأمي تتناولني وتميل على رأسي وهي تقول « أبوك مات » .

أبي مات !

لم أفهم هذا ، ولم يحدث الخبر في ذهني صورة ما ، فقد رأيت أبي ، كما اعتدت أن أراه ، لم يتغير وجهه ، ولا نظرته ، ولا ابتسامته ، ولم يختلف شيء سوى أنه راقد على مرتبة ، بدلاً من السرير حتى بعد أن ولولت النساء ، رددت عيني إليه ، فرأيت ابتسامته مرتسمة على شفتيه

وفي عينيه ، فثنيت طرفي إلى الباكيات النائحات ، ثم عدت أنظر إلى أبي فراعني أن الابتسامة ثابتة ، كأنها متحجرة ، وأن العين لا بريق فيها ولا ضوء ، وأنها كالزجاجة ، وأن المعنى الذي لمحته لما انحنيت عليه ليقبلني قد خبا وانطفأ فبهت ولكن منظراً جديداً شغلني وصرفني عما وقع في نفسي من هذا الموت العجيب فقد تشددت جدتي وتحاملت على نفسها ، وركعت إلى جانب إبنها وأدنت أصابعها برفق من عينيه فأطبقت عليهما الجفون ولثمت جبينه ونهضت تشهق وتكاد تختنق .

ولم يبق لي مقام بين هؤلاء الباكيات ، فانحدرت إلى فناء البيت حيث الرجال وكانوا يبكون ولكن في صمت ، في الوسع احتمالهم ، وضمني أخي الأكبر وأجلسني إلى جانبه ويده على كتفي والدموع تنهمر من عينيه ، وأنا كالصنم ،وأذكر أني خجلت ، وحاولت أن أبكي ودعكت عيني بأصابعي ولكن العبرة لم تسعفني ولم تنجدني،وكنت لا أزال غير فاهم هذا الموت الذي أثار هذه الضجة الشديدة في بيتنا ـ فوق وتحت ـ وترك النساء يلطمن والرجال يبكون مثل النساء .

ولا أطيل . أقيم المأتم واقتصر فيه على يوم واحد ، وكان مأتماً ككل المآتم فلا حاجة إلى كلام فيه،ولكن أخي بعد انقضاء الأيام الثلاثة صعد إلى حيث كانت أمي جالسة ، وأنبأها أن المأتم تكلف خمسمائة جنيه فدهشت ولم تصدق وقالت إن هذه ثروة ففي أي شيء أنفقها بل بددها في يوم واحد ..

فناداني وكنت قريباً منهما أسمع وأرى ودفع إلي ورقة فيها أرقام وقال « هذا ابنك يذهب إلى المدرسة ويعرف الحساب فليقل لك جملة الأرقام ماذا تبلغ ؟ » فجمعت الأرقام فإذا هي كما قال خمسمائة جنيه لا تنقص مليماً واحداً .

ولم يتغير شيء من حالنا في الشهرين التاليين سوى اختفاء أبي فقد كان المال الذي تركه كثيراً ، ولكن أخي بعد ذلك طلق زوجتيه وسرحهم وتزوج جارة لنا كانت عينه عليها ولا شك واتخذ لها بيتاً مستقلاً فاحتجنا أن ننتقل إلى بيت صغير بعد انتفاء الحاجة إلى البيت الكبير الذي كنا فيه ، فبدأت متاعبنا من ذلك اليوم فقد أهملنا أخي وبخل علينا بالمال وصار يقتر علينا ويغدق على زوجته الجديدة حتى بدد كل ما ترك أبي في نحو ثمانية شهور .

وكان لجدي أرض وكانت أمي هي الوصية علينا فزور أخي توكيلاً منها له وباع الأرض وبعثر ثمنها فيما كان يلهو به ونحن لا نعلم فلما علمت أمي لم تصنع شيئاً وقالت أنها لا تستفيد شيئاً من أن تنزل به ما يستحق .

وجاء يوم خلا فيه البيت من الطعام والبن والسكر والسمن فلو جاءنا ضيف لكانت فضيحة ، وكنت واقفاً على عتبة الباب أنظر إلى صبيان الحارة وهم يلعبون فرحين مسرورين لا يكربهم شيء ولا يفكرون في بن أو سكر ينقصهم ، وإذا بشيخ فاضل من زملاء أبي في الأزهر مقبل علي ففزعت وهممت بأن أتوارى عنه عسى أن لا يراني فيمضي في سبيله ولكنه لمحني فناداني ، وقبلني وقال « ستك الحاجة كيف حالها ؟ » قلت « بخير ولك الشكر » قال « إصعد إليها وقبل لي يدها وقل لها إني أريد أن أقابلها » .

ولم يكن في هذا غرابة ، فقد كان أيام الدراسة ملازماً لجدي وكان ربما أقام في بيتنا ــ مع أبي ــ الاسبوع والأسبوعين . وكانت جدتي تعده كابنها ، ولكني أشفقت من زيارته ، فما في البيت شيء يقدم لضيف كريم مثله ، فماذا نقول له ؟ وبأي شيء نعتذر ؟

ولم أر لي حيلة فأنبأت أمي وجدتي ، ثم انحدرت إليه وصعدت به فجلس يحدث جدتي وأنا واقف وظهري إلى الحائط ، وعقلي شارد وإذا بي أسمعه يقول أنه كان قد خطف من أبي مبلغاً ليشتري به أرضاً لنا ، ولكن الأجل وافى أبي ، فبقي المبلغ معه ، ولا علم لغير الله بذلك وقد خاف الشيخ أن ينزل به قضاء الله فيضيع مالنا ، فهو يريد أن يبرئ ذمته ويرده إلينا .

وقد كانت هذه بداية الفرج ، فقد وسعنا بعد ذلك أن نعيش بهذا المبلغ وتيسر الانفاق على تعليمنا ، والفضل لله ثم لهذا الشيخ الكريم ، وإنصافاً له ، واعترافاً بفضله ، أقول أنه المرحوم الشيخ إبراهيم بصيلة من كبار العلماء رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء فما وسع أحداً منا في حياته أن يرد له ذرة من هذا الجميل الذي لن ننساه ولا نجحده .

* * *

١٠

انتقلنا من اليسر إلى العسر ، ومن السعة إلى الضيق ، واستغنينا عن « عم محمد » وامرأته « حليمة » .. أو استغنيا هما عنا ، سيان ، فما كانا خادمين ، وإنما كانا منا فيما نحس ونعلم ، وأحكمنا تدبير أمورنا في حدود المورد الذي أسعفنا به حسن الحظ ، وزايلنا الشعور الأول بالسخط والألم وألفنا حياتنا الجديدة وإن كانت حافلة بضروب الحرمان مما كنا ننعم به في حياة أبي ، وكل شيء في الدنيا عادة ، حتى النسك والعبادة ، كما يقول النواسي ، من قصيدة في ابن الربيع :

أنت يا ابن الربيع علمتني النسك   وعودتنيـــــه ، والخير عادة

ومضت الأيام ، وانتظمت الأمور واستقرت الأحوال بعد القلق والاضطراب ، وكانت نفقات التعليم ، على ضآلتها ، فقد كانت ستة جنيهات في العام ، أثقل ما نضطر إلى الاحتياط له وتدبيره وفي وسع القارئ أن يتصور حياة من تثقل عليه ستة جنيهات في العام . فجاءنا يوماً قريب لنا ، واقترح علينا أن نطلب من الوزارة أن تعفيني من نفقات التعليم ، فاستحسنا ذلك وقلنا عسى ولعل ، وشرعنا نعين الوجوه التي ينبغي أن نحول إليها ما كان يأخذه التعليم . وكتب قريبي الطلب وأرانيه فقرأته على أمي فسرتها عبارته وما فيها من القصد والترفع عن الاستجداء والضراعة ، قالت حسبنا التعليم بالمجان مذلة .

وغاب قريبنا أياماً ثم جاءنا بنبأ قال « يا ستي » .

قالت أمي « نعم . خيرا إن شاء الله » .

قال « الغاية تبرر الواسطة » .

قالت « يعني ؟ » .

قال « إن هذا الطلب لا يرجى أن يجاب إلا إذا عززناه بقرشين » .

فصاحت به « إيه .. هل تريد أن تقول أن فلاناً ـ تعني ناظر المدرسة يطلب رشوة . ؟ »

قال « الأمر كذلك » .

فقالت أمي معترضة « إذا كنا سنرشو الناس ، ونحن فقراء ، فأولى أن نؤدي نفقات المدرسة ونستريح ونعفي ضمائرنا من هذا الإثم » .

قال « ولكن الإعفاء سيظل طول مدة التعليم » .

قالت « ولو » .

فانصرف قريبنا ساخطاً على هذا العناد متعجباً لهذا التحرج الذي لا موجب له في رأيه ، ولكنه لم يقنط ، فأعاد الكرة مرة أخرى ، حتى كرهت إلحاحه وآثرت أن تريح نفسها من لجاجته ، فأنقدته أربعة جنيهات زعم أنه سيفرقها على رجلين .

ومر شهر ، ودنا موعد افتتاح المدارس ونحن كل بضعة أيام نسأل قريبنا عن الطلب ماذا صنع الله به ، وهو يقول إنه يتعقبه في كل مرحلة من مراحله ، ثم فاجأنا يوماً بالبشرى ، ففرحت جدتي واغتمت أمي ، واضطربت أنا فلم أعد أدري أينبغي لي أن أفرح كجدتي أم أحزن كأمي .

وفتحت المدارس ، فأهملنا أن نعد مقدار القسط الأول ، وهو

جنيهان وجاءنا قريبنا يقول إنه أخطأ ، وأن الوزارة انما قبلت أن أتعلم « بنصف مصروفات » فقالت أمي بعد انصرافه « ضيعنا أربعة جنيهات وارتكبنا إثماً لنقتصد ثلاثة جنيهات » وناولتني جنيهاً ـ قيمة نصف القسط الأول ـ وقالت : « إذهب به إلى المدرسة والأمر لله » .

فذهبت إلى المدرسة وفي جيبي الجنيه ـ ولكن الله ألهمني ألا أذهب إلى كاتب المدرسة فاستأذنت على الناظر وقدمت له الجنيه فسألني وهو ينظر إليه وإلي « ما هذا يا بني ؟ » .

قلت « جنيه » .

قال « ظاهر ، ولكن لماذا تعطينيه ؟ » .

قلت « إن فلاناً قريبنا أخبرنا أن الوزارة قبلت أن أتعلم بنصف المصروفات فهذا هو القسط الأول » .

وكان الرجل رقيق القلب عظيم الحنان ، وكانت بينه وبين أبي صداقة فرأيت الدمع يترقرق في عينيه وهو يقول :

ـ « أنا آسف يا بني ، لقد رفضت الوزارة الطلب ، ووالله ما قصرت في السعي لك ولكن هذا ما كان » .

فشكرته وأعدت الجنيه إلى جيبي ، ورجعت به وبالخبر ، آخر النهار إلى أمي .

ودفعنا القسط كاملاً .

وسألت أمي قريبنا عن الحقيقة فاعترف لها بأنه كذب عليها وأنه أخذ الجنيهات الأربعة لنفسه ، ووعد أن يردها عند الميسرة ، وقد مات وهي في ذمته .

وقالت لي أمي يوماً « لست آسفة إلا على خديعتنا ، وما أثمرته من زيادة الضيق الذي كنا فيه ، أما التعليم فاني أحمد الله الذي مكنني من أداء نفقاته في مراحله كلها . فما كان يسرني أن تشعر أنك دون أندادك ، وإنك رقيق الحال ، وهم في سعة ، وكنت أخشى أثر هذا في نفسك فالحمد لله الذي حماك هذا الشعور » .

وأخذت الشهادة الإبتدائية فقالت أمي « تذهب إلى المدرسة الخديوية وتقدم إليها طلب التحاق بها » ولكن أخي وقريبي الذي أسلفت ذكره جاءا ليقنعا أمي بأن تقبل توظيفي فاستغربت وقالت : « ولكنه طفل » .

قال قريبي « إن نفقات التعليم الثانوي كبيرة فمن أين تجيئين بها ؟ » .

وعزز أخي رأيه ، وألح الإثنان عليها إلحاحاً شديداً وهي تأبى وتقول إنها لا ترضى بذلك ، وان ابنها يجب أن يتعلم ، وأن أوان التوظيف وكسب الرزق لا يزال بعيداً فأغلظ أخي لها في الكلام وعنف معها قريبي فطردتهما وأمضت مشيئتها وأدخلتني المدرسة . وقد بقيا زمناً غير قصير لا يجترئان على دخول بيتنا ، ولكنها كانت تبعث بي إليهما لأزورهما ، وتوصيني ألا أقطعهما ، وتقول انه خلاف أدى إلى جفوة بينها وبينهما ، وقد فعلت ما تريد وقواها الله عليه فلا مسوغ لبقاء النبوة ولا موجب لها على كل حال فيما بيني أنا وبينهما ، وهي لا تضمر لهما بغضاً ، ولكنها تخاف لعبهما ودخولهما مرة أخرى فيما لا يعنيهما ، فخير لي أن يبقيا بعيدين حتى أفرغ من التعليم .

واعترضت الحمى طريقي في السنة الأخيرة من التعليم الثانوي وكادت تضيعني بل تقتلني . وكان قريب لنا من الأطباء يتولى علاجي ، ولكن

العلاج لم يكن يبدو له أثر فقضيت الصيف كله أو جله راقداً لا أكاد أعي شيئاً ، من شدة الحمى .

وفي إحدى الليالي ثقلت علي وطأة المرض جداً ، حتى جزعت أمي على ما أخبرتني بعد ذلك ، وكادت توقن أني هالك اليوم أو الغد ، لولا أن الأم لا تفقد أملها ، وكنا في بيت كل غرفة فيه تصلح أن تكون ساحة أو ملعباً ، وكانت نوافذ الحجرة التي أرقد فيها تطل على فناء البيت وفيه شجرة جميز عظيمة ، تصل أغصانها الذاهبة في الهواء إلى النوافذ ، وكنا نضع قلل الماء على أحد هذه الشبابيك لتبرد ، فحدث أن مدت أمي يدها إلى قلة تريد أن تشرب ، فانفلتت القلة من بين أصابعها وهوت إلى أرض الفناء ففزعت أمي واضطربت جداً ، وكبر في ظنها أن هذا نذير بموتي ، وخطر لها أن تنحدر إلى الفناء في فحمة الليل لترى أسلمت القلة أم تحطمت .

وكانت لا تشك في أنها تكسرت فما يعقل أن تقع من أعلى طبقة في البيت وأن تنجو من التهشم ، ولكنها نزلت مع ذلك ، لأن القلة لم تكن عندها في تلك اللحظة إلا رمزاً ، وكانت سلامة القلة معناها البشرى بنجاتي .

ومن العجائب أن القلة لم يصبها سوء ولعل ذلك لأنها وقعت على أرض رخوة طرية كثيرة البلل تحت ظل الشجرة ، أو لا أدري كيف أعلل هذه النجاة من العطب الذي كان ينبغي أن يكون محققاً .

ولقد حدثتني أمي بعد ذلك بزمان طويل وهي تروي لي هذه القصة ، أنها بكت ، وأنها عجزت عن القيام ، فظلت قاعدة على الأرض غير عابئة بالبلل والرطوبة والوحل ، وفي يدها القلة والدموع تنهمر من عينيها ..

دموع الأمل والاستبشار .

وقضت ساعة فيما تحس ، ثم نهضت فصعدت ، ودنت مني وأنا نائم ، ولمست وجهي بكفها ، مترفقة محاذرة ، مخافة أن توقظني ، فإذا أنا أتصبب عرقاً ، وإذا بثيابي كلها ـ كما قالت ـ عصرة .

وأصبحت وقد ذهبت عني وقدة الحمى وأخذت أتماثل ..

* * *

١١

ذكريات مدرسية

سأقتصر في هذا الفصل على طائفة من الذكريات تخيرتها من عهد كنت فيه تلميذاً وعهد تال كنت فيه مدرساً .

وسأكتفي بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التي تغني عن التفاصيل ولست أرمي إلى غاية من هذا التصوير سوى ما يمكن أن يستفاد من مقابلة عهد بعهد ومواجهة ماض بحاضر . فمثلاً يمكن بسهولة أن تتصوروا حال التعليم الإبتدائي إذا قلت أن تلميذاً كان معنا في المدرسة نال الشهادة الإبتدائية فعين في السنة التالية مدرساً لنا في السنة الرابعة التي تعد لنيل الشهادة الإبتدائية . وأبلغ من هذا في الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى « الأشياء » وهي عبارة عن معارف عامة وكان تدريسها يومئذ باللغة الانجليزية . وارسم خطاً آخر تم به الصورة فأقول ما قلت في فصل آخر إن ناظرنا كان يقول عن نفسه أنه جاهل جاهل ولكنه إداري .

والآن أنتقل إلى طائفة أخرى من الصور للمدارس الثانوية .

كان التعليم الثانوي انتقالاً بأدق المعاني فقد صار كل ما في المدرسة انجليزياً ـ الناظر والمدرسون والتعليم ـ ما عدا اللغة العربية .

وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح في الامتحانات ، وأكبر ظني أنهم كانوا يترفقون بنا ويعطفون علينا ، يتساهلون معنا ، ويتركوننا ننجح على سبيل الاستثناء . وأدع غيري وأقتصر على نفسي فإني أعرف بها ، فأقول إني ما استطعت قط أن أفهم علوم الرياضة ، أو أن أقدر فيها على شيء ، ومع ذلك كنت أنتقل من سنة إلى أخرى بلا عائق . وكان الأساتذة يختلفون فمنهم الفظ ومنهم الرقيق . وأذكر أن أحدهم كان يذكرني درسه بالكتاب الذي حفظت فيه القرآن الكريم فقد كان يملي درس الجغرافيا ، فإذا كان الدرس التالي طالبنا به محفوظاً عن ظهر قلب ، وكان يقف أمامه التلميذان والثلاثة دفعة واحدة وعلى مكتبه الكراسة والتلاميذ يتلون وهو يسمع ، ثم يضع في كل ركن واحداً من الحافظين ليمتحن زملاءه . وكنت لا أستطيع أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب فكنت أحبس بعد كل درس في الجغرافيا حتى كرهتها وكرهت حياتي كلها بسببها .

وكان لنا مدرس آخر من أظرف خلق الله وأرقهم حاشية وأعفهم لفظاً ، فكان إذا ساءه من أحدنا أمر وأراد أن يوبخه قال له ، تَهَجَّ كلمة بليد مثلاً أو مجنون أو غير ذلك كراهة منه لإسناد الوصف إلى التلميذ مباشرة . ولم يكن تدريس اللغة العربية خيراً من تدريسها في الوقت الحاضر ولكنا كنا أقوى فيها من تلاميذ هذا الزمان ، لا أدري لماذا . وكان المفتش الأول للغة العربية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، وكان من أعلم خلق الله بها وبالصرف على الخصوص وكان رجلاً طيباً ووقوراً مهيباً ، فكان إذا دخل علينا يسرع المدرس إليه فيقبل يده فيدعو له الشيخ ولا نستغرب نحن شيئاً من ذلك بل نراه أمراً طبيعياً جداً .

وأعتقد أن منظر أساتذتنا وهم يقبلون يد الشيخ حمزة كان من أهم ما غرس في نفوسنا حب معلمينا وتوقيرهم ، فاني أراني إلى هذه الساعة

أشعر بحنين إلى هؤلاء المعلمين ولا يسعني إلا اكبارهم حين التقى بواحد منهم وإن كنت لم أستفد منهم شيئاً يستحق الذكر . ومن لطائف الشيخ حمزة أنه كان يقول ملاحظاته على المعلم على مسمع منا ، ولكنه كان لا يكتب في تقريره إلى الوزارة إلا خيراً . وقد اتفق لي بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين وعينت مدرساً في المدرسة السعيدية الثانوية أن جاء الشيخ حمزة للتفتيش فاغتنمت هذه الفرصة وقلت : « يا أستاذ ما هو الاسم العربي لهذا الدخان أو التبغ ؟ . » فقال : انتظرني يا سيدي حتى أنظر في « الكناشة » وأخرج مما يلي صدره تحت القفطان كراسة ضخمة لا أدري كيف كانت مختبئة غير بادية وقلب فيها ثم أنشد هذا البيت :

كأنمـــا حثحثوا حصا قوادمـــه   أو أم خشف بذي شث وطباق

ومضى عني . وفكرت أنا في كلمة الطباق التي جاءني بها الشيخ ، فاستحسنتها ورأيت أنها على العموم خير من كلمة تبغ نعرب بها اللفظ الإنجليزي أو الفرنسي « توباك أو توباكو » .

ومن حوادث الشيخ حمزة معي أني كنت أؤدي الامتحان الشفوي في الشهادة الثانوية وكان هو رئيساً للجان اللغة العربية ، فلما جاء دوري اتفق أنه كان موجوداً ، فلما انتهت المطالعة وجاء دور المحفوظات وكان لها مقرر مخصوص سألني ماذا أحفظ ، وكنت في صباح ذلك اليوم قد قرأت خطبة قصيرة للنبي صلى الله عليـه وسلم فعلقت بذهني وألهمني الله أن أقول إني أحفظ خطبة للنبي ، ففرح الشيخ جداً وخلع حذاءه وصاح « قل يا شاطر الله يفتح عليك » وسترني الله فلم أخطئ ؛ فاكتفى الشيخ بهذا وأعفاني من النحو والصرف الإعراب .

ولكنه في مرة أخرى كاد يضيع عليَّ سنة . وكنت طالباً في مدرسة المعلمين وكانت لجنة الامتحان في اللغة العربية برياسته فقال أحد إخواني بعد خروجه من الامتحان ، إن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف

ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذي يقع عليه الاختيار ، ولم نكن ندرس نحواً ولا صرفاً في المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب فأيقنا بالفشل.وجاء دوري فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه وناولني كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت ، ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهي « اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها » الخ . فقال : ضع الكتاب ، فوضعته ، فسألني عن العدوان والفعلين عدا واعتدى وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التي يكون عليها الفعل « اعتـدى » مثل « اعتديا » للماضي المثنى « واعتديا » للأمر ، فسألني لماذا كان الماضي بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سبباً وقلت إنه لا سبب هناك سوى أن العرب نطقوا بهما هكذا ، فدهش لهذا الجواب وقال : « ولكن لهذا سبباً » ، قلت « إن اللغة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفي ولا داعي للبحث عن سبب مختلق » . فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه وحدثت نفسي أنه خير لي وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطي الجهل . وأصررت على رأيي وكاد يحدث ما لا يحمد ، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش ـ وكان عضواً في اللجنة ـ تدارك الأمر ، فقد نظر في ساعته ثم التفت إلى الشيخ حمزة وقال « العصر وجب يا مولانا » فنهض الشيخ وهو يقول « أي نعم » وذهب للصلاة ونسيني فكان في هذا نجاتي . وقد حفظت هذا الجميل للشيخ شاويش ، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتي به .

ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة في مدرسة المعلمين ، ويكفي أن أقول أنه كانت لنا في الأسبوع ثماني ساعات لا نتلقى فيها أي درس ، فترك هذا التخفيف وقتاً كافياً للمطالعة الخاصة .. وكان أساتذتنا وناظرنا يشجعوننا عليها بكل وسيلة ولا يفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظموا لنا الأمر ، وأحسب أن هذا نفعنا جداً .

وقد صرت معلماً بعد ذلك وظللت أشتغل بالتعليم عشر سنين ، خمس منها في الوزارة وخمس في المدارس الحرة ، وفي هذه السنوات العشر لم أحتج أن أعاقب تلميذاً أو أوبخه أو أقول له كلمة نابية . ولم يقصر التلاميذ في محاولة المعاكسة ولكني كنت حديث عهد بالتلمذة وبشقاوة التلاميذ ، فكنت أعرف كيف أقمع هذه الرغبة الطبيعية في الشقاوة ، وكانت طريقتي أن أتجاوز عن الذي لا ضير منه فلا أشغل به نفسي والتلاميذ مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافة فيطلبها من جاره ويكلمه في ذلك فلا أعد هذا الكلام الذي لا يباح ، ولا أقيم ضجة من أجله وقد حدث يوماً وأنا مدرس في المدرسة الخديوية أن دخلت فرقة فألفيت على مكتبي كل أدوات الرياضة مرصوصة على نحو لا شك أنه متعمد وكان تلاميذي لا يجهلون كرهي للرياضة ، وكنت أنا لا أكتمهم أني أعد نفسي جاهلاً بها حماراً في علومها ، وكان غرضهم من رص هذه الأدوات أن يعابثوني عسى أن أثير الضجة التي يشتهونها ولا يفوزون مني بها ولكني لم أفعل بل اكتفيت بأن دعوت الفراش فحمل هذه الأدوات ووضعها في مكانها ثم بدأ الدرس . واتفق يوماً آخر أن دخلت الفصل فإذا رائحة كريهة لا تطاق ، وكان الوقت صيفاً والجو حاراً جداً فضاعف الحر شعوري بالتنغيص من هذه الرائحة الثقيلة . وأدركت أنها هي المادة التي كنا ونحن تلاميذ نضعها في الدواة مع الحبر فتكون لها هذه الرائحة المزعجة . فقلت لنفسي أنهم ثلاثون أو أربعون وأنا واحد وإذا كانت الرائحة القبيحة تغثي نفسي فانها تغثي نفوسهم معي أيضاً ، فحالهم ليس خيراً من حالي ، والإحساس المتعب الذي أعانيه ليس قاصراً علي ولا أنا منفرد به ، وأنهم الأغبياء لأنهم أشركوا أنفسهم معي وقد أرادوا أن يفردوني بهذه المحنة ، والفوز في هذه الحالة خليق أن يكون لمن هو أقدر على الصبر والاحتمال . فتجاهلت الأمر وصرت أغلق النوافذ واحدة بعد أخرى لأزيد شعورهم بالضيق

والكرب فلا يعودوا إلى مثلها بعد ذلك ، وقد كان . تصبرت وتشددت ودعوت الله في سري أن يقويني على الاحتمال ، ومضيت في الدرس بنشاط وهمة لأشغل نفسي عما أعاني من كرب هذه الرائحة الملعونة . وكنت أرى في وجوههم أمارات الجهد الذي يكابدونه من التجلد مثلي فأسر وأغتبط وأزداد نشاطاً في الدرس وإغضاء عمن يرفعون أصابعهم ليستأذنوا في الكلام فقد كنت عارفاً أنهم إنما يريدون أن يستأذنوا في فتح النوافذ عسى أن تخف الرائحة ويلطف وقعها .

وظللنا على هذا الحال نصف ساعة كادت أرواحنا فيها تزهق ، ورأيت أن الطاقة الإنسانية لا يسعها أكثر من ذلك ، وأن التلاميذ خليقون أن يتمردوا إذا أصررت على عنادي المكتوم ، واغتنمت فرصة أصبع مرفوعة وسألت صاحبها عما يريد ، فقال إنه يريد أن يفتح النافذة لأن الحر شديد ، قلت افتحها ، وفتحت النوافذ كلها . وتشهدنا جميعاً واستأنفنا الدرس ولكن بفتور لشدة ما قاسينا من رياضة النفس على احتمال ما لا يطاق . وانتهى الدرس وخرجت فخرج ورائي ثلاثة أو أربعة من التلاميذ ولحقوا بي ، وقال لي واحد منهم أنهم يأسفون لما حصل وأن الأمر كان مقصوداً به غيري ، وأنهم يطلبون الصفح ، فسررت ولكني تجاهلت وسألتهم عما يعنون . قالوا . الرائحة الكريهة التي كانت في الفصل قلت « رائحة ؟ أي رائحة .؟ إنني مزكوم ولهذا لم أشم شيئاً فلا محل لاعتذاركم » ومضيت عنهم ، وكان هذا درساً نافعاً لهم ولو أني عاقبت أحداً لما أثمر العقاب إلا رضاهم عن نفوسهم لأنهم استطاعوا أن ينغصوا علي ، وأن ينجح معي عبثهم الطبيعي في مثل سنهم .

وفي آخر سنة من اشتغالي بالتدريس توليت أمر مدرسة ثانوية فقلت للأساتذة : إنني ألغيت العقوبات جميعاً فلا حبس ولا عيش حاف ولا

شيء مما اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ .

ونظريتي هي أن المدرس الذي يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه المهنة وخير له أن يشتغل بغيرها وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغي أن تقوم على المودة والاحترام ، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور التلميذ بأن المدرس والد له يبغي له الخير ويخدمه ويفتح له نفسه ويقوي مداركه وينمي استعداده ، وأنه لا يلزمه بدرس ولا يفرض عليه شيئاً بل يرغبه في الدرس ويحبب إليه التحصيل .

وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر مني معونة على ضبط النظام ، وقد كان . قضينا في هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ بسلطان أو سطوة ، وإنما شعروا أنهم أبناء لنا وأننا إخوان كبار لهم وأصدقاء نافعون .

ولم أكتف بهذا بل ألغيت « الجرس » الذي يدق إيذاناً بابتداء الدرس أو انتهائه لأني لم أر حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور والمواظبة من تلقاء أنفسهم وبدافع من حبهم للمدرسة ورغبتهم في الوجود بها مع إخوانهم المدرسين حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر ، وبهذا استغنيت أيضاً عن الدفاتر الكثيرة التي تستعمل في المدارس والتي تحتاج إلى موظفين كثيرين لا داعي لهم .

وقد كنت أحب أن أظل في هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة ، ولكن الحركة الوطنية بدأت في صيف ذلك العام وجرفنا جميعاً تيارها الزاخر فهجرت التعليم إلى الصحافة .

ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق فقد اختلف الحال جداً وانقلبت الأوضاع .

١٢

كان عزائي في تلك الأيام قول القائلة :

راح يبغي نجوة   من هلاك فهلك
والمنايا رصد   للفتى حيث سلك
كل شيء قاتل   حين تلقى أجلك

أي والله ! فقد تبينت أن مصر توشك أن تثور ، فقلت أعفي أهلي من المتاعب التي تجر إليها الثورات واضطراب حبل الأمور ، فحملتهم إلى بيت جدي - لأمي - « على حدود الأبد » ، وأصلحت فيه شقة اتخذتها لنا ، ومضت شهور والثورة لا تقوم ، حتى خالجني الشك في صحة رأيي ، وكادت ثقتي بقومي تذهب ، وكنت في تلك الأيام أعاني أشد البرح ، فقد كان عملي في قلب العاصمة ، وبيتي في الصحراء ، والمسافة بينهما أكثر من عشرة كيلومترات أقطع نصفها وزيادة على قدمي غادياً رائحاً كل يوم ، ومعي ما يكفي لغذائي ، فإني أكره طعام السوق ، وكتاب أقرأ فيه في فترات الراحة من العمل ، فلما هبت الأمة زاد العناء واشتد البرح ، فقد بطل العمل . وخرج التلاميذ إلى الشوارع مواكب مواكب وكانوا يعتقلون بالمئات ، ويحشرون في كل مكان يخطر على البال ، حتى في مسجد محمد علي بالقلعة ، وكان الناجون من تلاميذي يرتدون إلي في المدرسة التي كنت ناظرها يومئذ ، ويقصون علي

ما جرى . ويذكرون لي أسماء المعتقلين من زملائهم ، ومكان اعتقالهم ، وكانت العلاقة بيني وبين تلاميذي علاقة أخ كبير بإخوة صغار ، فكانوا لهذا لا يكتمونني شيئاً ، ولا يحجمون عن مصارحتي بما يدور في نفوسهم ، وما تضطرب به صدورهم ، ولا يترددون في مشاورتي حتى في أخص الأمور الشخصية ، فكنا نعقد كل يوم اجتماعاً لتدبير ما يمكن تدبيره من وسائل الراحة لإخواننا الصغار المعتقلين من أبناء مدرستنا وكانت عقدة العقد أن المال لدينا قليل ، وأن الوصول إلى المعتقلين عسير ، فكيف نبعث إليهم ما عسى أن تكون بهم حاجة إليه من طعام أو ثياب أو فراش .

ومن حسن الحظ أن الوقت كان صيفاً ، ففي الوسع الاستغناء عن الأغطية واحتمال النوم على الأرض ، فيبقى الطعام والثياب ، ويطيب لي أن أروي أن بعض التلاميذ كان يرتدي عدة أكسية ويدس في جيوبه ما تتسع له من الآكال الناشفة ، ويقصد إلى المعتقل الذي يعلم أن فيه إخواناً له فيقدم نفسه على أنه شريك فيما جر الاعتقال على زملائه ، أي في المظاهرات وما إليها فيلقون به معهم ـ وقلما كانوا يصرفونه ـ فيخلع على زملائه أكثر ما كوم على بدنه ويطعمهم مما حمل ، وكان هذا يزيد المعضل تعقيداً ، لأنه يزيد عدد المعتقلين الذين نحاول تزويدهم بما يفتقرون إليه ، غير أن الوقت كان أضيق من أن يتسع لطول التردد ؛ فكنا نفعل كل ما يخطر على البال بلا حساب للعواقب ، ما دام له غناء إلى حين ، وسهل الأمر قليلاً أن المعتقلات كانت تضيق بمن فيها فيسرح بعضهم ليكون فيها محل لمن يقبض عليهم في كل يوم .

وليس من همي أن أتحدث عن الثورة وما كان فيها ، إنما أريد أن أقول إنها زادت عنائي وضاعفت ما كنت أكابده من مشقات ، وكل شيء عادة ، فألفنا التعب كما كنا نألف الراحة والرغد ، وسكنا

إلى الأحوال الجديدة الحافلة بالمنغصات والمتعبات ، وانقطع التبرم والضجر ووطنا أنفسنا بسرعة على احتمال كل ما عسى أن تجيء به الأيام .

وكان كل طريق إلى بيتي ، يحوج إلى اجتياز المقابر ، فكنت أسلكها كل يوم ، وأرى الأجداث المبعثرة في كل صباح ومساء ، وتحت ضوء القمر ، وفي وقدة الظهر ، وفي الظلمة الحالكة ، وفي البكرة المطلولة فنفعني هذا وبلد شعوري بالموت ، ومحا استهوالي له وجزعي منه ، وجعله فيما أرى وأحس ، أمراً عادياً لا غرابة فيه ولا جدة له ، حتى لقد صار يتفق لي بعد ذلك أن أحتاج إلى الراحة بعد طول المشي ، فأقعد على صوى قبر من القبور الكثيرة في طريقي ، وأشعل سيجارة ، وأروح أدخن وأدندن ، بصوت خفيض ، أو أرسل الصوت بالغناء ، ولا أشعر بحرج أو استنكار .

وكان بدء التحول في حياتي أن زوجتي ماتت ، وإني لأومن أن لكل أجل كتاباً ، ولكني إلى هذه الساعة لا أستطيع أن أعفي نفسي من ثقل الاعتقاد أن الطبيب قتلها ، وهو سكران ، وقد مات هو أيضاً بعد سنوات ، فإلى حيث ألقت ، وما أعرفني شممت بميت سواه ، ولم يتعمد قتلها ، ولكنا دعوناه ــ وقد جاءها المخاض ــ فشممت رائحة الخمر من فمه ، وفحصها ثم قال لي إن الحالة طبيعية ، ولم يكن ثم موجب لدعوتي ، وسيحصل الوضع في أوانه ، ولكني جئت فلا داعي للانتظار (كذلك قال والله) وكنت أعاونه ، فطهر الآلات وشرع في العمل ، وجر الجنين فإذا الآلة التي طوق بها رأسه قد حفرت فيه إخدوداً يسع الخنصر ، وشغل نفسه دقائق بالجنين ، والتنفس الصناعي على غير جدوى ، فألححت عليه أن يتركه ويعنى بالأم ، فما ثم شك في أن الجنين مات ، فرجع إلى الأم ليخرج « الخلاص » فكان والله يشده كما رأيت الفرق

الرياضية تتجاذب شد الحبل بينها بأعظم ما يملك من قوة ، ثم رأى أن هذا لم يجد ، فدس يده وأخرج الخلاص مقطعاً إرباً ، ثم لفها ، وقال ترقد ولا تسقوها ماء ، وأخذني معه ، فقال لي إن الحالة خطرة ، وإنه آسف . فلم أطق هذا اللف وسألته : « متى تتوقع أن تكون الوفاة .. ؟ إني أسألك عن هذا لأني أوثر أن أكون على بصيرة ، ولا تخش جزعي ، فإن واجباتي الآن لا تدع لي وقتاً للجزع » فلم يجبني جواباً صريحاً ، وقال : سنرى ما يكون صباح الغد .

وعدت إلى زوجتي فأدركت مما رأيت أن النزف يلح عليها ، وأنها تموت شيئاً فشيئاً ، فبقيت إلى جانبها أقوي نفسها ـ وأنا يائس ـ وأشد من عزيمتها ، وأبتسم لها وقلبي يتفطر ، وبالغت في التظاهر بالاطمئنان حتى لقد خلعت ثيابي وارتديت ملابس النوم ، ولكنها كانت تحس من نفسها ما لا أحس ، فأوصتني بولدنا خيراً ، وودعتني ، وجادت بالنفس الأخير ويدي على يدها .

وكاد عقلي يطير ، وهممت بأن أشكو الطبيب ، ولكن ما الفائدة ؟ ! وكيف أثبت تقصيره أو خطأه أو سكره ؟ ! وشق علي الأمر حتى لقد تغير رأيي في الناس والحياة الدنيا ، والخير والشر ، وحدثت أكثر من طبيب بما كان ووصفت له ما حدث فكانوا يتعجبون ، ولكن هذا لم يجدني ، ولم يمنع أن طبيباً ثملاً قتل امرأتي ، وأين العزاء في أنه غير عامد ، وأن هذا قضاء وقدر على كل حال .

ولم ينجني من الجنون إلا إكبابي على ابن الرومي والاشتغال بتصحيح الأخطاء في ديوانه الذي كنت أستنسخه قبل ذلك وهذه أول مرة نفعني فيها شاعر .

تغيرت جداً بعد هذه الحادثة فأنا فيما أحس وأرى مخلوق آخر

غير الذي عرفته في ثلاثين سنة على أني مع ذلك ظللت قادراً على كبح النفس فلم يفلت من يدي العنان أو لم أدعه يفلت .

وانقضت الأربعون ـ وأحسب أن عادة استمرار المأتم أربعين يوماً موروثة من أيام الفراعنة الذين كانوا يبقون الجثة أربعين يوماً لتحنيطها ـ فلم أعد أطيق بيت جدي بعد أن خرجت زوجتي من دنياي فيه ، فتركت فيه ما كانت زوجتي قد جاءتني به في جهازها واستأجرت بيتاً آخر حملت إليه أثاثنا القديم وعكفت فيه على ديوان ابن الرومي لأصححه على قدر الطاقة .

واتفق في ذلك الوقت أن عقدت محكمة عسكرية لمحاكمة كثيرين فيما زعموه مؤامرة كبرى ، وكان المتهمون أكثر من عشرين بينهم سكرتير اللجنة المركزية للوفد المصري الذي كان يفاوض لجنة ملنر بلندن ، وكنت أعمل يومئذ في « الأخبار » مع المرحوم أمين الرافعي بك فسألني من نبعث إلى المحكمة لحضور جلساتها .. قلت « سأحضرها أنا » قال « إنه عمل طويل شاق ، فدعه لغيرك » ، قلت « كلا ، وإن بي لحاجة إلى عمل مضن يشغلني عن نفسي ، ويصرفني عن التفكير في أمري ، وما أصبت به في حياتي » فوافق ودعا لي بخير ، ولم تدع لي المحكمة العسكرية وقتاً لسواها ؛ وكانت تعقد في اليوم جلستين ، وظللت كذلك من يوليو إلى سبتمبر ، وكنت في مساء كل يوم أعود إلى البيت فأرتمي على الفراش وأنام كالميت ، فنفعني هذا أيضاً وإن كان أسقمني .

ومن المضحكات أن جريدة الأخبار دعت الأمة إلى الاكتتاب لإقامة تمثال نهضة مصر للمرحوم مختار المثال وبلغت جملة ما جمعته حوالي ستة آلاف من الجنيهات وكانت الاكتتابات تودع بنك مصر أولاً فأول .

ولكن بعض البلهاء ظن أن ما تتلقاه الأخبار من الاكتتاب يحفظ في بيتي أنا ، وكان البيت طبقة واحدة ، وله فناءان ، واحد قدامه وآخر خلفه ، وفيه الفرن وما إليه ، وكان الجدار الخلفي واطئاً ، فأيقظني ذات ليلة صوت جسم وقع في الفناء الخلفي فتوهمت في أول الأمر أن حجراً مزعزعاً أسقطه قط أو نحوه ، ولكني سمعت بعد ذلك حركة كحركة من يعالج فتح باب ، فنهضت ، ومضيت إلى الباب الموصد ، وفتحت شباكه ونظرت فإذا واحد من أهل الحي ، ولم يخطر لي أنه جاء ليسرق ، فما في البيت ما يستحق أن يطمع فيه أشد اللصوص قناعة ، وظننته جاء يطلب شيئاً ، فحييته وإن كان قد أسخطني عليه أن يجيء في هذا الوقت المتأخر ، وفتحت له الباب وقلت له « تفضل » وحملت ما بدا لي من تردده واضطرابه على محمل الخجل فألححت عليه فدخل ، فمضيت به إلى المكتبة ، وناولته سيجارة وقمت لأصنع له قهوة ، فاستغرب سلوكي معه ، وأعجبه على ما يظهر ، فأقر لي بالحقيقة وسألني الصفح ، فضحكت ، وقلت له والله إني لجدير بأن أخجل منك ، فإن البيت فارغ ، ودرت به على الغرف ليرى بعينيه مبلغ فراغها فزاد خجله ، وطال اعتذاره وعظم أسفه ، فخطر لي أن من نقص المروءة أن أرده خائباً ، صفر اليدين ، ولم أجد غير الكتب ، فتناولت طائفة منها ، وقلت له خذ هذه وبعها ، وإذا احتجت إلى سواها فتعال إلي ، فقد مللت عبادة الأصنام وكتبت له رقعة وقلت فيها إني أعطيته هذه الكتب ، حتى لا يزعجه الشرطة .

والطريف بعد ذلك أنه صار صديقي فقال لي يوماً أن هذا البيت غير مأمون لأنه « منطة » وأن الأولى أن أتخذ حارساً ، ولولا أنه مشغول بكسب رزقه لتولى الحراسة الواجبة . ولكنه سيجيء برجل أمين يقظ ، يؤدي هذا الواجب .

وبعد بضعة أيام جاءني بفقيه أعمى وقال هذا حارسك ، فلم أر أن أرده ، فكان يبيت كل ليلة عندي على الشرفة ، وإلى جانبه نبوته ، وكان خفيف النوم فكل شيء يوقظه ، وإذا استيقظ ضرب الأرض بنبوته وصاح « من القادم .. » فأستيقظ أنا أيضاً ! .. فلم أجد لي في هذه الحراسة راحة فحولته إلى المقبرة ، وقلت له إقرأ على هذا القبر كل يوم ما تيسر من القرآن الكريم .

وانتقلت إلى بيت آخر آمن وأقل حاجة إلى هذه الحراسة .

* * *

١٣

منذ مئات من السنين ، أو الحقب فما أبعد هذا الماضي فيما أحس ، وما أقربه أيضاً ـ قرأت قصة هيبسيا لشارلز كنجزلي ، وكان صديقي العقاد هو الذي دفع بها إلي وأوصاني ، وأنا أقرأها ، أن أحضر إلى ذهني قصة تاييس لأناتول فرانس ففعلت ، ورأيت كما رأى ، أن من الممكن أن يقول المرء أن القصة الانجليزية هي التي أوحت إلى الأديب الفرنسي بموضوع تاييس ، وأنا أفضل القصة الإنجليزية ، وإن كان أناتول فرانس أبرع فناً وأسحر أسلوباً ، على أن هذا موضوع آخر ، وكل ما أريد أن أقوله أن في هيبسيا ، على ما أذكر ، رجلاً عجيب الأطوار غريب الفلسفة ، يكون في زورق أو سفينة ـ فما أدرى الآن ـ فيروح يتفلسف في ضعف دلالة الحس على وجود المحسوس ، حتى ينتهي إلى إمكان القول بأنه هو غير موجود على الرغم من إحساسه بنفسه ، وشعوره بوجوده .

وقد راقني هذا الرجل يومئذ وأعجبتني فلسفته ، وإن كانت تؤول إلى لا شيء ، وبعد كل هذه السنين لا يزال منطقه يدور في نفسي ، ومع ذلك لا أستطيع أن أتذكر اسمه ، أو ماذا هو في الرواية ، وكنت في صباي ـ أي نعم في صباي ـ أحببت فتاة كانت جارة لي ، وكانت في مثل سني ومن أجلها كففت عن اللعب في الحارة مع الغلمان ، ومن أجلها

كنت أسقط من سطح بيتنا على سطح بيتها لأنعم بحديثها وأتملى بالنظر إلى حسن وجهها ، فقد كان أهلي يزجرونني عن لقائها وأهلها لا يرضون عن حبنا الصبياني ، وهؤلاء وأولئك جميعاً يخشون العاقبة ولا يطمئنون إلى النهاية . وكنت لا أكتم حبي لها ، بل أشعر به وأنا جذل مسرور أحدث به غلمان الحارة ، فيستغربون ، وأحدث خادمنا فيدعو لي بطول العمر والسعادة ، والشيوخ الوقورين من أصدقاء أخي الأكبر يضحكون ، ويتسلون ، ويربتون على كتفي ويقولون « عال عال ما شاء الله . ما شاء الله » .

وكنت أقول لأمي حين تنهرني عن هذا الذي كان في رأيها عبثاً « ماذا يضير أحداً أن أحبها ؟ » .

فتقول « اختشي يا ولد عيب ! » .

فأتعجب وأسألها « عيب ؟ أي عيب في حبي لها ؟ إني لا أصنع شيئاً سوى إني أحبها . »

فتقول « هذا هو العيب » .

فأسألها « ألست تحبينني ؟ » .

فتبتسم وتقول « يا بني كيف تسأل ؟ » .

فأقول « لست أسأل ، فإني أعرف أنك تحبينني ، وأنا أحبك وليس حبك لي عيباً ، ولا حبي لك ، فلماذا يكون ذلك عيباً ؟ » .

فتقول « هذا شيء آخر ، أنت إبني ، وأنا أمك ، ولكن هذه ... هذه ليست منا » .

فأسألها « إن أبي لم يكن منك . ولكن تحبينه ، وما زلت تلبسين

السواد حداداً عليه منذ سنوات » .

فتقول « ولكنك صغير لا تفهم » .

فأقول « صحيح أني صغير ، وأني لا أفهم ، ولكني أحس يا أمي .. ألا يكفي أن أحس ؟ وصدقيني ولا تغضبي أو تستائي حين أقول أنه أشتهى إلي أن أكون جالساً إليها الآن وإن قلبي يرف صبوة إليها » .

فتطرق شيئاً ثم ترفع رأسها وتضع يدها على كتفي وتقول « وبعد ؟ ما هي النتيجة ؟ ما هو المآل ؟ » .

فأقول « لست أعرف ماذا تعنين ؟ كل ما أعرفه أني أحبها وأنا فرح بذلك » .

فتسأل « ولكن النتيجة ؟ ماذا بعد هذا الحب ؟ ما آخرته ؟ » .

فأقول « لا شيء .. أحبها ، وهذا هو الأول والآخر .. ثم لماذا يكون له آخر ؟ » .

فتقول « إنك طفل .. وهذا غير معقول » .

وكان حب هذه الفتاة ينمو على الأيام ، كما ينمو شعر رأسي . وقد تحولنا إلى بيت آخر وبعدت الشقة جداً ولم يكن هذا ليمنعني أن أقطع المدينة من أولها إلى آخرها سيراً على القدمين كل يوم لأزورها . وثابرت على حبها أعواماً طوالاً ثم زوجوها في الأرياف فغابت عني ، فغاب الخير والأنس ، وغاض السرور من نفسي ، وأظلم القلب .

كان هذا وأنا صبي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وقد مضى ثلث قرن وزيادة على هذا الحب الأول ، وزحفت المدينة ، وهدمت الحي الذي كان فيه بيتها . هدمته كله ، ورفعت عمائر جديدة ، وشقت

طرقا ، ووسعت ميادين ، وغرست أشجاراً ، ومدت قضباناً ، وأجرت تراماً . وإذ بي في يوم من الأيام أزور هذا الحي وأجوبه شبراً شبراً ، وأتمثل ماضيه كيف كان ، حتى أهتدي إلى الرقعة التي كان بيتها قائماً عليها فأرجع مغتبطاً قرير العين ، وأزداد اعتزازاً بذكرى ذلك الحب .

ولم تبهت ولن تبهت صورة الفتاة ، وإني لأراها الآن ، كما كنت أراها في ذلك العصر الخالي ، واقفة إلى جانبي وأمامنا على النافذة طبق فيه « لب » تقشره لي ، وتعطينيه ، لأني لا أحسن تقشيره ، أو جالسة على حشية تسرح شعرها الدجوجي ، وترجله وتضفره ، فأميل على رأسها ، وأدني أنفي من شعرها الوحف ، وأشمه . وإني ليخيل إلي أني أجد طيبه الآن في أنفي ! وما أقول « يخيل إلى » إلا اتقاء لإنكار القارئ فإن شعوري بذلك أصدق ما يمكن أن يكون شعور إنسان بشيء . وما زلت أراها ، تجري في الحارة وراء دجاجة لها شاردة ، وأنا أدعوها أن تتريث وتقف هناك ، وتخطو مترفقة ، على حين أقف أنا في ناحية أخرى لنحصر الدجاجة بيننا ، ونزحف ونضيق على الدجاجة المارقة ، وهي تصيح وتضرب بجناحيها ، وتحاول الإفلات ، فتنحني الفتاة عليها بغتة لتمسكها فتأخذ عيني ثدييها الناهدين الراسخين وقد ثقلا بالثوب وأحس هزتهما تحته ، فيدور رأسي وأذهل عن الدجاجة ولا أعود أدري أفلتت أم وقعت ، فتصيح بي وقد اعتدلت « مالك وقفت وسكت ؟ ألا تساعدني ؟ » فأفيق وكأني عدت من عالم آخر ، ولا نزال بالدجاجة حتى نمسكها .

وصورتها وهي على السطح تنشر الثياب المغسولة على الحبال الممدودة وتثبتها بالمشابك ، وقد كشفت عن ساعديها وطوت الكمين فوق المرفق ، فبدت البشرة السمراء مضطرمة من أثر الغسل ، وجهد الدعك وفعل الصابون .

وصورتها وهي واقفة بفناء البيت تودعني ، وباب السكة موارب ، وقد ضممتها إلى صدري وطوقتها بذراعي ، وعكفت على فمها بالقبل الحرار ، وكان وجهها إلى الباب ، وظهري إليه ، فمر رجل من أصدقاء أخي ، نعرفه ثرثارة تماماً ، وتراه فتحاول أن تفلت من عناقي ، وأحسبها ضجرت ، وأتوهمها فترت ، فأكتئب ، فتصيح « لا لا .. هذا الرجل » وتقص علي الخبر وتعيد لي بشاشتي وترد إلى روحي الإشراق .

وصورتها وهي راقدة ورأسها على وركي ، ويدي على شعرها أمسحه وأتخلله بأصابعي ، وألمس خدها الأسيل ، وأداعب شفتها الرقيقة بأصبعي ، فتغافلني وتعضه .

كلا ، لن تبهت هذه الصور أبداً ، ولن تكبر الفتاة أو ترتفع بها السن ، أو يزداد عمرها عندي يوماً ، وستظل على الأيام غضة صغيرة .

ولكني نسيت اسمها ، فكأني ما عرفته قط ولا سمعت به .

ترى ماذا كان ؟ وكيف كان في السمع ؟ وفي وسعي أن اسميها شيئاً وأن أطلق عليها أعذب ما أعرف من الأسماء ، ولكنها عندي أحلى هكذا بلا اسم ، ولا عنوان . وماذا يزيدها أن يكون لها اسم وماذا أصنع به وليس ينقص الصورة شيء ؟

نسيت اسمها كما نسيت اسم ذلك الرجل المتفلسف في قصة هيبسيا .

* * *

١٤

بعد أن كتبت الفصل السابق شق علي أني نسيت لماذا سقت قصة هذه الفتاة التي أحببتها وأنا صبي ، ولا يزال لحبها ـ أو لذكراه ـ نوطة في الفؤاد ، وعلوق بالنفس ، وقضيت أياماً أحاول أن أتذكر ، حتى وأنا أعمل أو أتكلم ، أرى خواطري تنثني إلى هذا الذي تفلت مني وغاب عني ، وكان يخيل إلي أحياناً أن السجف المسبل ينمحي قليلاً ، قليلاً ، أو ما يشبه السحاب المعقود يرق ويشف ، وأن نجماً يوشك ومضه الخفاق أن يطالعني ، فأبتسم ، وأطمع ، وأتشوف ، ولكن ما كاد يرق حتى يعود فيتكاثف ويتراكب ، فأرتد بالخيبة والأسف ، وأتعزى بقولي من يدري ؟ إن للذاكرة معابثاتها ، وقد يتفق لي يوماً بعد أن أكف عن تعنية النفس بما نسيته ، أن أكون في مجلس شراب أو في السينما ، أو أكون ناهضاً من رقاد ، فيحضر الغائب ويظهر المحجوب أو المتواري ، ويطفو الراسب ، ومن يدري أيضاً ؟ لعلي حينئذ أتذكر اسم الفتاة !

ولكن أيمكن أن أكون على يقين أن هذا اسمها ؟ هل يسعني أن أطمئن إلى أن هذا الاسم هو الذي كنت أعرفها به ؟ كلا ، فما إلى هذه الثقة أو الاطمئنان من سبيل ، وعجيب أن أنساه .

وأعجب منه أن ما يدور في نفسي من الأسماء لا أجد له في جوانبي صدى ولا أحس منه هزة أو عسى أن تكون هي قد نسيت اسمي ، بل

نسيتني جملة . فما كنا إلا طفلين نلعب بما لا نفهم ، وما أحسبها غالت بحبها لي وضنت به على العفاء كما غاليت وضننت ، وأكبر الظن أن شئون الحياة وشجونها وأفراحها وأتراحها أذهلتها عن ذلك العهد على ما كان فيه من حلاوة . وله من سحر ، وانه ليخطر لي أحياناً ، وأنا أرى بني ان هؤلاء كان يمكن أن يكونوا بني منها ، ولو رأيت أبناءها ـ أترى صار لها بنون ؟ ـ لما وسعني أن أتصور أنهم بنوها دوني ، أو على الأقل أن خاطري الماثل في نفسها لم يطبعهم بشيء مني ، ولكن أنى لي أن أعرف ـ بل أكون واثقاً ـ أن خاطري يتمثل ، أو كان يتمثل لها ؟ ويشق علي أن أتصور أنها تنسى . ولعل حبها لم يكن كفاء حبي ، ولكن أحسبها تنسى كل شيء إلا أني فزعت إليها واختفيت عندها وفي بيتها ، وفي حجرة مظلمة رطبة مهجورة منه ، يومين كاملين .

وكان أخي الأكبر ـ رحمه الله ، فإن به حاجة إلى الرحمة ـ قد أراد أن يبرني ويسرني فدعاني إلى مرافقته في يوم « شم النسيم » فذهب بي ، ومعنا من أصدقائه ذلك الشركسي الثرثار الذي أشرت إليه في الفصل السابق ـ والذي رآني أعانق فتاتي فذهب يقص الخبر على كل من يلقاه ويقهقه فسمعت به أمي واغتمت له جداً ـ إلى روض الفرج ، وكانت هناك سفن راسية .

وقد صفت عليها الكراسي والطاولات على هيئة المقاهي ، فجعل أخي وصاحبه يشربان « بيرة ستوت » وجاءت امرأة سمينة ، ولكنها جميلة فسلمت وجلست ، وأديرت عليها الراح التي تدار عليهما ، ونظرت المرأة السمينة إلي بعينيها المكحولتين وسألت « ألا تشرب ؟ » فتبسمت ولم أرد ، فقال أخي وكان من أظرف الناس إذا شرب ـ « خذ ... إن هذا لا يضر » فهززت رأسي أن لا ، فمال علي وهمس في أذني « لا تخف اشرب وأنت آمن » فهززت رأسي مرة أخرى ، فعاد يهمس في أذني « اشرب بالله ،

وسأقول لخالتي – يعني أمي ولم تكن خالته ولا أمه ـ أني أسقيتك سوبية »
وهي شراب يصنع من الأرز فقبلت وأقبلت على الكوب الكبير أكرع منه
كما يكرعون ، وكان هذا أول عهدي بالشراب ، فدار رأسي قليلاً ،
وأحسست بالدم يصعد إلى ما وراء عيني ويتجمع هناك وانطلق لساني
وراح هذا الشركسي الثرثار يغمز أخي فيسألني هذا عن فتاتي ، فأقول
بحي فيضحكون ويقهقهون ، وتكون المرأة السمينة الجميلة أعلاهم
ضحكاً وأشدهم قرقعة صوت ، وكانت صورة هذا المجلس ماثلة
لخاطري ، لما نظمت بعد سنوات طويلات المدد ـ قصيدة مطلعها .

حثـــا شرابهمـــا في ظـــل حسان	ريـــاه ريحاننـــا في مجلس الحان
ريـــا الحبيب ، ولا شيء كنفحته	وهنا يهيج أطرابي وأشجاني
حثـــا شرابهمـــا حتى رأيتهمـــا	لا يسمعان ، وإن كانا يقولان
هما أثيران علاني عـــلى ظمـــأ	وبـــالشراب على سري يغوصان

ولم أكن أعني هذه السمينة الجميلة ، ولكن صورة مجلس الشراب
الأول ألحت علي . فمضى القلم يرسمها كالتي يطربني منها ما تثيره من
الذكرى .

ولا أحتاج أن أقول أني سكرت ، وقد دخلت على أمي ، وشمت
من فمي رائحة الخل ، فغضبت غضباً شديداً ودعت جدتي « لأبي »
وقالت انظري ما صنع خيري بأخيه ؟ فنادت جدتي أخي ، فأقبل عليها
يبتسم لها ، فصاحت به « يا قليل الحيا يا مزبلح .. خد » وخلعت
القبقاب ، وأهوت به على أخي وهو يضحك فيلاطفها ويعتذر ويسألها
الصفح ، ويحاول أن يطمئنها علي ، وكنت أنا قد تسللت إلى غرفتي ،
وارتميت على السرير ، ولم أكد أفعل حتى ألقيت ما في جوفي عـــلى
البساط ، فخجلت .

ولم أعد أطيق أن أنظر إلى وجه أمي أو جدتي ، فصعدت إلى السطح وانحدرت منه ـ على السلم المعهود ـ إلى سطح الفتاة ونزلت إلى الفناء ، وأهبت بها أن تؤويني ، وتخفيني عن العيون ـ حتى عيون أمها وأختها ـ فحارت كيف تصنع ، ورأيت أنا باب الحجرة المهجورة فدفعته ودخلت وقلت هنا اختبئ ، ولم يكن في الحجرة شيء يصلح للجلوس أو الرقاد ، فسرقت الفتاة كرسياً قعدت عليه حتى نتدبر الأمر ، ثم جاءتني بحصير ومخدة فارتميت ونمت ساعات ، ولما أفقت كانت قد هيأت لي طعاماً ـ بيضاً مسلوقاً وقطعة من الجبن وبضع زيتونات وخبزاً ـ فأكلت هنيئاً وشربت ماء كثيراً .

في هذه الحجرة قضيت ليلتين ، وكنت فيها كأني في سجن ، فما كنت أبرحها إلا دقائق حين آمن العيون ، وكانت الفتاة تؤنسني بوجودها ، وتجيئني بأخبار البحث عني ، وقد ضحكنا جداً لما روت لي أنهم أطلقوا منادياً يصيح في الشوارع « ياللي شاف ولد تايه عمره اتناشر سنة لابس جلابية بيضة وراسه عريانة اسمه ابراهيم ... الخ الخ » .

وكان ضحكنا لأني لست طفلاً حتى يظنوا أني تهت وضللت الطريق وكان قلبي يعصره الألم كلما تصورت جزع أمي وجدتي ، وبكاءهما ، وقد هممت مراراً أن أبعث إليهما بخبر مطمئن ، ولكن الوقت كان يمضي ولا أفعل ، وكان التردد في هذا والحيرة شر ما أعاني ، ولكني كنت راضياً مغتبطاً بقرب الفتاة وحسن رعايتها لي ، وصدق سريرتها في كتمان سري ، حتى عن أمها وأختها . ولم أكن أبالي الرطوبة أو الظلام فقد كان الوقت صيفاً ، والظلام جنة ، وألفت عيناي النظر فيه فكان حسبي أن أرى محيا الفتاة .

و لكن الحب بالغاً ما بلغ من القوة والعمق ، لا يمنع أن يضيق المرء

صدراً بهذا الحب ، وأن تلح الرغبة في الخروج من مثل هذا المحبس على ما كان فيه من الأنس ، ولم تنكر الفتاة مني ما كان يبدو من تململي وضجري واشتهائي الخروج إلى النور ، بل تطوعت فكانت رسولي إلى أمي تطلب لي منها الصفح ، فما كان من أمي إلا أن ائتزرت وخفت إلي ، وضمتني إلى أحلى صدر وأرق قلب كأنما كنت قد غرقت أو خطفت .. !

كلا ، قد تنسى الفتاة كل شيء إلا هذه الحادثة ولكن أين هي ؟ فوق الثرى أم تحته يا ترى ؟ قد تكون ماتت ! أو تكون الآن عجوزاً شمطاء ! فهل أنا أحب اليوم أن أراها ، وأن أعرف كيف صارت من بعدي ؟ ؟ لا !

وإني لأذكر أني كنت يوماً أتمشى مع صديقي الأستاذ العقاد ، فرأيت رجلاً قصيراً مرسل اللحية أبيضها ، مقوس الظهر ، مغضن الوجه ، فقلت لصديقي « أنظر .. هذا هو المازني في السبعين من العمر ! تالله ما أقبح ما نحن صائرون إليه من الضعف والتهدم والدمامة ! لا يا سيدي ، خير من هذا المصير عمر قصير مع الصحة والقدرة » .

نعم ، أكره أن أرى الفتاة في حاضرها ، وأن أفسد على نفسي صورة صباها النضير ، وشبابها الريان ، وهبها ماتت ، فما ماتت عندي ، وإني ليموت مني كل شيء ، ولكنها هي عندي ومعي حية لا تموت ولا تهرم ما بقيت .

* * *

١٥

أراني منذ بضع سنوات أزداد كل يوم انقباضاً عن الناس ، وفتوراً عن لقائهم ، ومخالطتهم ، ونفوراً من الاتصال بهم ، وكنت قبل ذلك أحس الضيعة إذا لم أجد من أجالس وأحادث ، وكان يسرني أن أسمع صوتي ـ لا شادياً بل متحدثاً ـ وكانت لذة الحديث لا تعادلها عندي لذة ، وكنت في سبيل هذه المتعة البريئة أصنع كل ما يراني الأخوان ذا ولوع به أو طلب له ، من بريء وكانت الوحدة تتلف أعصابي ، وتعصف باتزاني ، وتكلفني شططاً ، ثم ألفيتني ـ من حيث أشعر ، ولا أشعر ، أضيق الدائرة ، أو أوسع لنفسي المخرج من محيطها ، وأتسلل شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت أتلفت فلا أجد حولي أحداً ، وصرت إذا احتجت إلى لقاء صديق قديم ، أتردد ، وبي من التهيب والخجل مثل ما يحس المرء عادة عند لقاء غريب لا عهد له به .

وقلت لنفسي مرة « يا هذا ، إنك لتمشي في شارع غاص بالخلق مائج بالرائحين والغادين والرائحات والغاديات ، وتروح وتجيء مثلهم أو مثلهن ساعة أو بعض ساعة ، وتقطع خمسة فراسخ في الذهاب والإياب فلا يتفق أن تلقى وجهاً تعرفه . نصف المدينة القارئة تخرج إلى هذا الشارع وتسير فيه . وكل من ترى معه صاحب أو صاحبة ، ولا تزال يده ترتفع بالسلام أو رأسه يهتز بالتحية لهذا وذاك ، إلا أنت فما

يمر بك من تعرفه أو يعرفك ، ومع ذلك أنت أشهر من يمشي في هذا الشارع ، ولعل كثيرين ممن تأخذهم عينك قد قرأوا لك ، وأعجبوا بك أو سخطوا عليك فهم يعرفونك إذا كانوا يعرفونك ـ ورقات مغلفة أو مجلدة ولا يعرفونك في الأحياء من أمثالهم ، ومن يدري ، لعلهم يستغربون ، بل يستنكرون أن يروك في الطريق ! فكثيراً ما تحصل في نفوس القراء صور للكتاب ليس أغرب منها ولا أعجب . وقد خابت لي أنا آمال كثيرة في أدباء عرفتهم قبل أن أراهم ، لأني وجدتهم على خلاف ما كنت أتخيلهم مما أقرأ لهم . والصورة التي يرسمها المرء للمجهول تكون على هواه ، وقلما يكون الأصل على حقيقته كذلك . والنفس بعد أن تفرغ من رسم الصورة وتلوينها وانطاقها بالتعابير المستوحاة من الآثار المنشورة يعز عليها أن تتناولها بالتنقيح والتبديل بل بالتغيير التام في أحيان كثيرة وهذه الصورة المتخيلة تكون من جهد النفس ، والنفس لا يطيب لها أن يذهب جهدها عبثاً ، وأثقل من ذلك على المرء أن يعترف بأن فراسته لم تكن صادقة ، وأن التوفيق أخطأه فيما تعب فيه ، وباهى فيما بينه وبين نفسه به ، وما أكثر ما سمعت من الناس في أول لقاء « غريب » ! لقد كنا نتخيل المازني شيئاً جسيماً له طول وعرض « أو قولهم » لقد كنا نتصور أنك تكور على رأسك عمامة عظيمة وترسل لحية كثة « أو قولهم » أأنت المازني أم اختزاله ؟ « ومتى كان هذا هكذا أفلا يكون الأمثل أن أبقى في أذهان الناس كما يشاؤون أن يتخيلوني وأن أظل عندهم كتاباً يقرأونه ويرضون عنه فيما أرجو ـ أو لا يرضون فقد استوى هذا وذاك عندي ـ ؟ ؟ ؟ » .

وقلت لنفسي أيضاً « إنك لم تعش إلى الآن » كما تحب وتؤثر أن تعيش ، ولا سبيل إلى حياة تشتهيها ما دمت تخوض العباب مع الخائضين وتضرب في اللجة مع الضاربين ، لأنه لا يسعك إلا أن تنزل في الأغلب

على حكم الجماعة ، ولكل جماعة قواعد حياتها ، والأمر في جد الحياة مثله في لعبها ولهوها . وكما أن للعب أصوله ونظامه ، كذلك للجد ، ولا مفر من التزام هذه الأصول إلى حد كبير والنزول على حكمها ؛ وإن كان كل خاضع لها يتسخطها ولا يرتاح إليها ، إذ القيد قيد على كل حال فإذا أردت أن تحيا حياتك على النحو الذي هو آثر عندك فلا مهرب من التعزل ليتسنى لك أن تكون على هواك » .

وقلت لنفسي أيضاً ، على سبيل التشجيع « واعلم أنك لا تخسر شيئاً تتحسر عليه ، وتألم فقدانه إذا أنت انصرفت عن الناس وزهدت في مخالطتهم ، فسيكون عندك خير عوض عما يفوتك ، ذلك أنك تكون كالذي يشرب عصارة ولا يمص ، فهل من الخسارة أن تعفي نفسك من تعب التقشير والمص ، ومنظر النفاية التي لم يبق فيها خير ، وأن تقنع بالعصارة التي هي الخير كله ؟ ؟ » .

وصحيح أن بذل الجهد لذة ، وأن ما يتعب فيه الإنسان يكون أحلى وأمتع مما يجيء بلا عناء ، ولكني لن أحرم لذة الجهد ، حين أستغني بالكتب عن الناس . وقد صرت آكل ما يريح وينفع ، لا ما هو أشهى وأمتع ، وأشرب ما يفيدني لا ما هو أعذب في فمي أو ما أنا إليه أميل وأني لأرد نفسي عن كثير مما يتحلب عليه الريق ، لأن طاعة النفس فيه يجيء في أعقابها ما لا يطاق من الآلام والأوجاع . وهذا كله رياضة على الحرمان وعلى أن الحرمان لا يكون إلا من الطلب ، ولا أعرف لي الآن مطلباً عند الناس ، فقد بعد ما بيني وبينهم جداً ، وإني لأراني مع الواحد منهم فأحس أنه في كوكب آخر وعالم غير عالمي ، ليس همي همهم ، ولا أنا منهم ولا هم مني في قليل أو كثير ، ومني ذهب الشعور بالمشاركة فماذا يبقى ؟ ؟ ولست أعني أني خير منهم أو أفضل ، ولكني أعني أني أراني مختلفاً ، والاختلاف ليس مزية ، ولا فضل فيه ولا رجحان .

وقلت لنفسي أيضاً « لقد ثار بي صديق مرة لأني سألته ألا تشتهي أن تتمرغ كالحمار على الأرض ؟ ؟ وحسب أني أقول إنه حمار ، وأنه لا ينقصه إلا أن يتمرغ ، وأعترف أني أسأت العبارة عما أريد ولكني إنما عنيت أن النفس تنزع إلى الحرية ، وما دام لا ضير فيها على أحد فماذا يمنع منها ؟ ؟ ولماذا نحيط أنفسنا بأسلاك شائكة لا ضرورة لها ولا منفعة منها ؟ .

وهبني تمرغت على التراب ، وتقلبت على الأرض ، كما يفعل الحمار ، فأين البأس هنا ؟ ؟ إذا كان ثم بأس فهو عليَّ لا على أحد غيري ، وثيابي هي التي ستتسخ ، ووجهي هو الذي سيتعفر ، وإذا كانت نفسي تنازعني أن أفعل ذلك ، فإني أنا الذي يؤذيه الإحجام عنه ، وأنا الذي ترتاح أعصابه وتسكن نفسه إذا فعل . ولكن صاحبي غضب ، وإن كنت لم أقصر في الشرح والبيان ، وفي الاعتذار من سوء العبارة وقبح الاختيار للمثل . ولا يزال يذكرني بالسوء كلما عرض ذكري في مجلسه ، ولا ينفك يقول إني وقح قليل الأدب ، ولا شك أني كما يقول ما دام الأدب هو ما يعرف وقد يسره ويخفف من سخطه على أن يعرف ـ إذ أمكن أن يحمل نفسه على قراءة شيء لي ـ أني أخرج في بعض الأحيان إلى الصحراء وأتمرغ كالحمار على رمالها ، وأعوي كالكلب وأموء كالقط ، وأصرخ وأصيح في هذا الفضاء الشاسع ، ثم أنهض وأنفض عن ثيابي الغبار ، وأمسح وجهي ويدي . وأعود إنساناً محتشماً ذا سمت ووقار ، ولكن بعد أن أكون قد أرضيت نفسي وأشعرتها أني حر ولي في هذا الذي لا قيمة له عند الأكثرين . وأن في وسعي أن أفعل ما أشاء ، وأكون على ما أحب . ولا نكران أن هذا لا يتاح لي إلا وأنا منفرد وحدي ، ولكنه ليس بالقليل أن تستطيع أن تكون مستفرداً وحدك وأن تنعم بذلك ، ولا تستوحش نفسك ولا تصبو إلى الناس .

ولعل المتعة مستفادة من القدرة على مغالبة الصبوة إلى المجتمع لا مما عسى أن تفعل وأنت وحدك . ولكن كثيرين يكونون وحدهم ، ولا عين عليهم ، ولا خوف من أن يراهم أو يسمعهم أحد ومع ذلك لا يجرءون أن يفعلوا ما تحدثهم به نفوسهم .

* * *

١٦

وقلت لنفسي أيضاً « لا أدري لم هذا الموت ؟ وإني لأشتهي أن أرى حياة من لا يموتون ، وبودي لو يمتد بي الأجل إلى زمان يسع الإنسان فيه أن يغالب هذا الردى العادي . وأحسب أن الموت هو مصدر ما نعده فضائل في الإنسان ، وقد شرحت هذا فيما كتبته عن المتنبي في « حصاد الهشيم » فلا أعود إليه ، ولكني أحسبه أيضاً علة ما ألفنا أن نسميه الرذائل . غير أنه ما الخير والشر ؟ وما الفضيلة والرذيلة ؟ أخشى ألا يكون هذا وما إليه أكثر من ضوابط للسلوك ، ووسيلة لتنظيم الجماعة والانتفاع بما في الطباع . وإنا لفي زمن يعد فيه الخير في مكان شراً في مكان غيره ، والفضيلة هنا مرذولة هناك . ولقد أدركت عهداً كان ذكر الحب فيه عيباً ؛ وكان تقبيل الفتى لأمه التي أنجبته ، قلة حياء ، فالآن نعلم أولادنا أن الرجل والمرأة ما لم يتحابا لا يجوز أن يتعايشا ، ونطلب لغير الشرعي من الأبناء مثل ما لصنوه الشرعي من الحق والكرامة ، ونرى الخطيبين أو الزوجين ، أو الصاحب والصاحبة يتلاثمان على قارعة الطريق وفي المجلس الحافل ، ونحس الرضى والاغتباط من الناظرين ، ونشعر أنهم يدعون لهما ، ولا نحس أنهم يستهجنون أو ينفرون وليكن هذا كيفما شاء الله أن يكون ، فأين العزاء فيه لحي لا يلبث أن يصبح « هالكاً وابن هالك ، وذا نسب في الهالكين عريق » ؟

وطال تفكيري في هذا الموت ، وخامرني خاطره ، فهو لا يفارقني في يقظة أو منام ، وإني لأحلم به وإن كنت بلطف الله أصبح ناسياً ما تراءى لي من الصور والحوادث في رقادي ، وما غمضت عيني ليلة إلا وأكبر ظني أن أفقد نفسي فلا أعود إلى الشعور بها ، وقد أحب أن أهون على نفسي الأمر فأتساءل متغابياً أو مغالطاً « أترى كل ما في الموت هو هذا الفقدان للشعور بالذات ؟ » ولا ينفعني هذا فأرتد أقول « وكيف يعد حياً من لا يعرف أنه حي ولا يحس بنفسه ؟ وماذا تكون إذن جدوى استمرار حياة لا يحسها الحي ولا يفطن إليها ولا يدرك بها أنه موجود » أطبق الجفن على الجفن وأنا أحدث نفسي أن ما لا حيلة لي فيه لا حيلة لي فيه ، فلأقصر عن تدبره ، ولكن علي واجباً هو إدخار القوة والدفاع بها إلى آخر رمق . ولكن قلبي يظل يخفق ويدق ، ويكبر في وهمي أني إذا نمت قد تختلس مني الحياة وأنا ذاهل غافل لا أقدم دفاعاً ولا أقوم بكفاح ، وأحس دقات قلبي في رأسي قوية تكاد تفلق العظم ، وأسمعها بأذني مدوية تعصف بسكون النفس واتزان الأعصاب وأشعر كأن كياني كله يرتج بل يزلزل ، فأحتال لاستعادة السكون ، وأوثر لهذا أن أنام وأنا قاعد فإن القعود ، فيما جربت ، يعفيني من حدة الشعور بدقات القلب ، وأروح أقول لنفسي . يا هذا إن الدقات منتظمة وإن كنت أسمعها عالية ، وكل إنسان يستطيع أن يسمعها ويستهولها كما تفعل إذا هو جعل باله إليها ، فقلبك بخير ولا خوف عليه على الأرجح من سكتة مفاجئة ، يجمد من جرائها تيار الحياة ، وقد قال لي طبيب استشرته أن القلب سليم وأن جسمك الضئيل لا يكلفه جهداً وأن أيسر عمله كاف جداً لإدارة الدم في البدن كله وهذه أعصابك قد أتلفتها بهذا التفكير الدائم في الموت ، فهل تستطيع أن تبين لي على أي شيء تحرص في الحياة حتى تجزع من الموت هذا الجزع ؟ وأشغل نفسي بجواب هذا السؤال ، وأروح أعرض على نفسي وجوه حياتي ، ولا أبخس الحسن حقه ولا

أغالي بالقبيح أو أهول به ، ويطول بي ذلك فيأخذني النوم وأستريح من هذا العناء الباطل .

ولكن الخاطر يظل حاضراً أبداً ، على الرغم مما أحاول أن أدافعه به ، فأنا أقعد للطعام وأحس من نفسي الإقبال عليه والرغبة فيه ، ولكن كل لقمة أتناولها يصحبها إنذار « حاذر من الكظة » فأنهض عن المائدة وما شبعت وتقول زوجتي وهي تقوم معي « لا أراك تأكل الكفاية » فأقول متمثلاً « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ؛ وإذا أكلنا لا نشبع » وأتقي أن أعديها بما ينغص عيشي .

وأكون كما يقول الشاعر القديم :

ولما نزلنا منزلاً طلــــه النــدى أنيقاً ، وبستاناً من النور حاليا
أجد لنــا طيب المكــان وحسنه مني ، فتمنينا فكنت الأمانيــا

ولكني أنظر إلى هذه التي هي مني النفس ، وروح الحياة وريحانها فأرى بأول الظن « آخر الأمر من وراء المغيب » فتبدو لي ملفوفاً عليها كفن وقد شاعت الصفرة في محياها المتوهج ، وآضت عينها التي تنفث السحر كقطعة من زجاج ، وشاع فيها البلى علواً وسفلاً ، وصارت غضارتها ونضارتها صديداً سائلاً تسد من نتنه الأنوف .

وأرد نفسي إلى عيني وأترفق بها وأنا أتصور مآلها ، فأراها شجرة يذوي نورها ، وتذهب زهرتها ويجف ورقها ويسقط عنها ، فتتعرى ، ثم يجيء الحطاب ويهوي على أصلها بالفأس ... وكانت هنا شجرة ثم غابت ... هذا كل شيء .

ويحضرني بيت للخيام مما ترجمته عنه :

وأين ، لا أين ، بلبــل غـرد كان يغني على الغصون لنا ؟

فأديره في نفسي وأدهوره في شدقي ، بلا صوت ، وأظل مع ذلك أتبسم للجالسين وأحادثهم وأمازحهم وأجد معهم وهم لا يدرون أني قبر مظلم ، وأني أستر نفسي وأحجبها عنهم بأزاهير الضحك المتكلف ؛ أي نعم فما أعرفني ضحكت ضحكة من القلب .. ضحكة سرور حقيقي عميق .. ولكن ماهم هم أقول لهم ذلك ، وأغش به نفوسهم وأفسد نعيمهم وأسود الدنيا في عيونهم ؟؟

ويلقاني الشبان ، ويسألونني ، ويرهفون السمع لما أقول ، وفي ظنهم أني أحكم منهم وأعلم ، وإني لكذلك ولكنها حكمة خير منها الطيش وعلم . أفضل منه الجهل ، فأقول لنفسي . يا هذا . إنك مسخ كريه ، وإن كان هؤلاء الشبان لا يعلمون ، فلا تنزع القناع ، ولا تكشف لهم عن الخراب والقبح اللذين في نفسك ، ولا تدع عيونهم تأخذ الديدان التي تمرح في جوفك وترفق بهم فإن حسبهم ما لا بد أن تصدمهم به الحياة عاجلاً أو آجلاً بل آجلاً كما أرجو لهم وأحب وإني لأتمنى لهم السلامة والنجاة ، ودوام الاغترار بالعيش ، وإن قلبي ليعصره عاصر حين أتخيلهم وقد فتحوا عيونهم على حقائق أخرى غير التي يعرفونها أو يأملونها ، وأروح أرسم لهم صورة للحياة الزاهية وأضع نفسي في موضعهم وأتكلم بمثل لسانهم ويكلفني هذا شططاً ، فليس أقسى من ثني الأعصاب وإكراهها على حالة غير حاليها ويخيل إلي وأنا أبذل هذا الجهد من نفسي أني أوقدت ناراً تحت أعصابي لتحمى ، وأني أدقها بمطرقة لتلين وتتخذ الصورة التي أريدها ويؤسفني أني لا أجد ما آمرهما به بعد ذلك لتخمد الجذوة وتبترد ، ويذهب عنها الحر .

وأسأل نفسي « أتراك تتمنى أن تستأنف حياتك وتبدأها من البداية كرة أخرى ؟ » ولا أكذب نفسي فأقول (لا) وأحس أني في حيرة ، فلا أستطيع أن أقول (نعم) وما خير التكرار إذا كانت النهاية واحدة ؟

وإذا تسنت العودة من جديد واستئناف الحياة في الدنيا مرة ثانية ، فهل يكون ذلك بهذه النفس التي ألفتها ؟ وأرى الجواب كلا على التحقيق ، فأزهو في فراق النفس ، ولا أرى هذا الاستئناف للحياة ، أو ابتداءها من جديد ، إلا ضرباً من الموت ، فكأني سأموت ميتتين بدلاً من واحدة . وأحياناً هذا الخاطر بالتهكم والسخرية ، أركب بهما نفسي والناس والحياة وكل ما فيها ، وتستغرقني العاطفة الفنية فترة ، فأذهل ، وأهنأ ، لأن بالي خلا من التنغيص ، ولأن عاطفتي الفنية جعلتني فيما أحس أقوى من الحياة نفسها ؛ لأنها انتزعتني من اللجة ، ووقفت بي على الشاطئ و أتاحت لي أن أتأمل صورة الحياة من ناحيتها المسلية ، وأنا بمعزل عنها فكأني محلق فوقها ، غير خاضع لها .. ومن يدري ؟ لعلي أدخل السرور على نفس أخرى مظلمة كنفسي ، بما أعالج من فكاهة الحياة ؟ . وليس قليلاً أن أستطيع ذلك وإنه ليسعدني أن أتوهم أني استطعت إسعاد غيري ولو دقائق معدودات وقد أكون واهماً ولكنه وهم جميل ، بل جليل ، وأنه الذي يغريني بتلمس الجوانب الفكاهية في الحياة ، ولا أنكر أن هذا يسري على نفسي أيضاً ، ولكن ما ينفعني ويشفيني ساعة لا يخلو من نفع لغيري . وما أظن بي إلا أني أصبحت كذلك الذي شفاه دواء لا يعرفه الأطباء ؛ فهو يعد منه ملء زجاجات يهبها للشاكين المتوجعين لوجه الله وشكراً لله .

وقلت لنفسي أيضاً : « يا هذا ، لقد جاوزت الخمسين ، فأنت الآن في المنحدر ، كنت على جانب آخر من جهل الحياة ، تصعد وتتوقل ، ويصرفك ما في الصعود من مشقات وما يتقاضاك من جهد ، وما تأخذه عينك من صور ومناظر ـ عن التفكير في الذروة وما بعدها ، فالآن أشرفت على الجانب الآخر ، ولا مفر لك من النزول . وعبث باطل ليس يجدي أن تخادع نفسك ، وتوهمها خلاف ذلك . وقد يتيسر لك أن تقف هنا قليلاً ، وتتلبث هناك لحظة ، ولكن الانحدار مهما

طال الوقوف ، لا مهرب منه ثم إنك وأنت لا تستطيع أن تجعل عينك إلى فوق ، فهي أبداً ـ أو في الأغلب الأعم ـ إلى تحت .. إلى المصير المحتوم .. وهو محتوم .. محتوم ، ما في هذا أدنى شك فما قولك في رياضة النفس عليه ؟؟ تروض نفسك على الموت .. على الاطمئنان إليه .. على السكون إلى ما يهولك منه ، والرضى به ؟؟ واعلم أن هذا لا ينفي حرصك على الحياة وضنك بها ، وكل ما فيه أنه يعدك لما بعدها ، فأنت كالذي يذهب إلى مدرسة ليهيئ نفسه لغده المأمول ، فهذا غدك الذي لا ريب فيه ، فمن أصالة الرأي أن تتهيأ له . وسينفعك هذا ، ومواجهة الحقائق أولى وأرد على المرء من تجاهلها والمكابرة فيها .. »

وراقني هذا ، فصح عزمي على رياضة النفس على السكون إلى الموت .

* * *

١٧

سألت نفسي : « لو أمكن أن أبدأ حياتي من البداية ، مرة أخرى ، فهل تراني أسير فيها كما سرت ؟ » .

وخطر لي ، وأنا أدير هذا السؤال في نفسي أن الأولى أن أسأل : هل يسرني أو أنا أشتهي ، أو أتمنى أن يرتد عقربا الساعة ، وأن أكر راجعاً إلى تلك البداية ؟

ولا أدعي أني كرهت هذا ، ونفرت منه ، ولكني أقول . إني ترددت وصحيح أنها كرة ـ لو أتيحت ـ يكبر بها الأمل في طول البقاء في هذه الدنيا ، والتلبث على الأرض ، ولكن المعول في الحياة ليس على الطول والعبرة ليست بالمدة ، وعدد السنين ، بل بالامتلاء والسعة ، ولولا شهادة الميلاد لما صدقت أني تجاوزت الخمسين ، فإني ـ كما قلت قديماً أيام كنت مغري بالنظم ـ

أحس كأن الدهر عمري ، وأنني أخو مغرق الأرضين بالفيضان

ويضحكني الآن أني قلت هذا ، فما أعرف أخي المزعوم هذا من عسى أن يكون ؟ وقد كنت أعني نوحاً ، ولكن نوحاً لم يغرق أرضاً ، ولم يفجر ماء ، وكل ما كان منه أنه صنع فلكاً حمل فيه من كل شيء زوجين حتى أقلعت السماء ، وبلعت الأرض ماءها ، فليته ما فعل ؟ وهذا

البيت مثال للتأليف السخيف الذي لا دقة فيه ولا إحكام . وبعد أن يقول المرء أن الدهر كله ، عمره ، لا يقبل منه هذا القياس المحدود ، بأن يكون أخا نوح أو حتى أخا آدم ، فإن مسافة هذا الزمن مهما طالت لا تعدو أن تكون جزءاً من الدهر . وقد كنت في هذا البيت شبيهاً بالعامة أو الأطفال حين يقيسون ما لا حد له إلى ما له حدود قريبة . وللعامة عذر من أنهم محدودون ، وأن فجاج الفكر والخيال والشعور مسدودة عليهم ، وليس كذلك الأديب الذي يزعم أنه واسع ، وأنه عالم صغير « يسع السبعة الأقاليم طراً » كما يقول ابن الرومي في بيت يهجو به ابن بوران ، أو أمه ، ويقول بعد :

كضمير الفؤاد يلتهم الدنيـا وتحويـــه دفتـا حيزوم

والذي يزعم نفسه قادراً على أن يطوي العالم كله في ضميره ، وأن فؤاده يتسع للدنيا لا يجوز له أن يكون قاصراً محدود الخيال ، ضعيف التصور كالطفل والجاهل العامي النفس .

وكان بعض الإخوان قد أشار على أن أعيد طبع ديواني بعد أن أضيف إليه ما لم ينشر ، فقلت له إني لا أرضى الآن عما قلت من الشعر في صدر حياتي ـ وأنه يحتاج إلى مراجعة طويلة متعبة ، ليصبح في رأيي صالحاً للنشر ، ولا صبر لي على هذا ، ولا وقت له عندي ، ومن الخطل أن أنشر ما لا أستجيد ، فقال إن رأيك فيه ليس من الضروري أن يكون رأي الناس مثله ، وأن ما لا يعجبك قد يعجب غيرك ، وأن ما يروقك قد لا يروق سواك .

فقلت هذا صحيح ، ولكنه شعري ، ونشري له معناه رضاي عنه وارتياحي إليه ، وغير مقبول أن أشتم الناس بأن أقول لهم خذوا هذا الشعر ، فهو حسبكم وإن كان ليس حسبي ، ثم إن رأيي أنا في كلامي

هو الذي يعنيني ، وما قلته إلا للعبارة عما في نفسي ..

فإذا كنت أراني لم أجد العبارة ولم أوفق في التصوير ، وأني تشابه الأمر على ، لجهلي ، وخلطت بين العرض والجوهر ، وركبني الغلط حتى فيما توهمته حقيقة إحساسي وخوالجي ، فكيف أستبيح أن أعرض هذا الخلط والغلط والعجز على الناس ؟؟

وكما لا أحب أن أنشر ما قلت من الشعر بعد أن أدركت ما فيه من قصور ، كذلك لا أحب أن أبدأ حياتي ـ كرة أخرى ـ من البداية ، وأكبر الظن أن ذكرى الشباب أحلى من حقيقته ، وأعذب . وإني لأغوص في أعماق نفسي الآن ، فأجد أني في شبابي لم أسعد به كما أسعد بذكراه ، وأني لم أجعل بالي في عهده إلى الحلاوة التي أتذوقها الآن من عرض أيامه على خاطري ، ونشر المطوي من زمانه ، وأحسب أن الذي يكسب ذكرى الشباب هذه الحلاوة ويرقّ القلب له ويعطفه عليه ، ويعصره أيضاً ، هو أن الإنسان ينتقي منه وينتخب ، ويغربل وينخل ، ويبرز ما يحب ، ويحجب ما يكره ويقول هذا هو الشباب ! ! كلا ، ليس هذا بالشباب ، وما كانه قط ، ولن يكونه ، وإنما هو الحميد منه ، مستخلصاً ، ومصفى ، ومعروضاً على نفس تحس دبيب الفناء ، وتشعر بأنها مولية عن الدنيا ، وكل ما يذهب ولا يرجع يلتفت إليه القلب ، وما ينفرد الشباب بما يدعو إلى الصبوة إليه والرغبة في استعادته ، فما يخلو عهد من عهود العمر من بواعث الرضى ، وللكهولة لذاتها ومتعها ، كما للشباب ، بل لعل متع الحياة ولذات العيش في الكهولة أقوى وأعمق ، فإن للتجربة مزيتها وللمعرفة فضلها ، والمرء يغالط نفسه حين يقول إن ما مر به كان أطيب مما هو فيه ، فما كان كذلك ولكن الذي في الماء لا يستطيع أن ينعم بمرأى البحر ومناظر السابحين فيه ، كما ينعم بذلك الواقف على الشاطئ ، والماضي أوقع في النفس

لأن ذكراه تثير السرور بما كان فيه من حسن ، والأسف على انقضائه ، وتمنى عودته ، ولكن الحاضر يشغل بمعاناته عن التفكير فيه والإحساس به من نواحيه جميعاً . كالسابح في الماء يشغل بجهد السباحة عما حوله من المناظر . وإذا وسع الإنسان أن يكون في اللحظة الحاضرة وأن ينأى عنها ويلاحظها من بعيد ، ويتأملها ويوقظ لها نفسه وحسه وعقله ، كما يفعل حين يتدبر الماضي ـ إذا وسع المرء أن يفعل هذا ، فإنه يستطيع أن يضيف إلى لذة الحاضر المتع المستفادة من رجع البصر أو التذكر .

والأمر يحتاج إلى رياضة ، وقد استطعت أن أروض نفسي على هذا ، فأنا حين أكون على حال ما ، لا أعجز عن انتزاع نفسي منه ، والوقوف بمعزل عنه بحيث يتسنى لي أن أراقب ما يجري ـ كأنه يقع لسواي ـ وأن أدير فيه خاطري فأكون في الخاطر وكأنه مضى وظفر بالمتعة المحسوسة والمتعة المتخيلة وأضرب مثلاً فأقول هبني أعانق فتاة وأقبلها ، فأنا حين أفعل ذلك أشعر بمتعة القبلة ولذة الضمة ، ولكني أزيد على ذلك أني أستطيع أن أسبق هذه اللحظة بسنة أو سنتين . وأتصور نفسي جالساً أتذكر حلاوة القبلة التي فزت بها من تلك الفتاة ويكون تصوري هذا في أثناء التقبيل . فهما قبلتان ـ واحدة أحسها بفمي ويرف لها قلبي وأخرى يجسدها لي خيالي كما ستكون بذكراها بعد انقضاء عام أو عامين وهكذا في غير ذلك .

لهذا لا أرى مزية للعودة إلى الشباب .

* * *

١٨

سألني « بعضهم » هل تعتزل الناس ، أو تروم أن تعتزلهم ، لأنك مللت الحياة ، وزهدت في العيش ؟ أو أنت تفعل ذلك لأنك لا تأنس من نفسك القدرة على خوض الغمار ، ومصارعة التيار ، أي لفتور عراك وضعف أدركك .

وليست هذه ألفاظ السائل ، فقد نسيت الموضع الذي كنت أدخر فيه رسالته إلى أوان الرد عليها ، والنسيان آفتي التي تكاد تذهب بلبي فإني أنسى كل شيء إلا أني أكلت ، وما أذكر الشبع إلا بما أعانيه من كربة الثقال ، وأحسب أنه ـ وأعني النسيان ، لا الشبع ـ هو الذي حماني أن أحب وأعشق ، وكيف بالله يكون حب من يمسي عاشقاً ويصبح سالياً ؟ ؟

أي والله ، وإن الحسن لفتنة ، وإن القلب ليصبو !

ولكني أنسى أني صبوت . وتطير من رأسي الأسماء والأحاديث ، كما تطير العصافير عن أعشاشها .

وقد اتفق لي أن خرجت يوماً بالسيارة وحدي إلى آخر مصر الجديدة ، فأوصدت أبواب السيارة وذهبت أتمشى في الحدائق الممتدة إلى حدود الصحراء ، وكنت مطرقاً أنظر إلى الأرض وأنا أخطو ، وكان بالي إلى الفرق بين وقع قدمي ـ قدم رجلي السليمة ، وقدم رجلي المهيضة ـ

وإلى مسافة الزمن التي يستغرقها الخطو بكل منها ، وأيهما أثقل وأبطأ فيما أحس وأرى .

وكان الداعي إلى هذا أنه خطر لي أني مخطئ في اجتناب الرقص ، وأنه عسى أن تسعفني ساقي المهيضة ولا تعبأ بالحركة الخفيفة السريعة المطلوبة فلا يبقى موجب للصبر على هذا الحرمان ومسوغ لتوطين النفس عليه ، وأنا أحب الرقص ، ولكني لا أحب أن أكون حجر طاحون ، وأخشى أن تخذلني ساقي ، فأتلكأ وأبطئ ، أو أدوس قدم التي أراقصها وأدور بها ، وأخجل أن أجرب قبل أن أتبين واستوثق ، وإني لهكذا وإذا بي أصدم بفتاة داخلة من بعض أبواب الحديقة ، فاتقيت الوقوع بإسناد كتفي إلى كتفيها ، واتقته هي براحتيها على صدري وأفقنا فشرعت أعتذر ، فقاطعتني وقالت « أهو أنت ؟ » .

فابتسمت وقلت « ليس عندي أدنى شك في أني هنا ، فهل يكفيك هذا الجواب ؟ إنه على كل حال من نوع السؤال » .

قالت « إنما أعني أن هذه مصادفة عجيبة . أين كنت كل هذا الزمن ؟ » .

فتأملتها ، وأطلت التحديق في وجهها الصابح ، ولكن رأسي لم يختلج فيه شيء ، فهززت رأسي وقلت « كل هذا الزمن ؟ هل ؟ هل أقص عليك تاريخ حياتي من البداية ؟ » .

قالت « ألا تذكر ؟ » .

قلت « هذه هي المسألة ـ كما يقول هملت ، فهل سمعت به ؟ » .

قالت « كيف تنسى ؟ كيف يمكن أن تنسى ؟ » .

قلت « اسمعي » وجررتها من ذراعها إلى المقعد « هذا موضوع

يحتاج إلى تقص طويل ، فقولي لي : هل أنا مدين لك ؟ هل اقترضت منك مالاً ، أو استعرت شيئاً ؟ » .

فضحكت وقالت « لا مال لي أقرض منه ، وليس عندي ما يستحق أن يعار » .

قلت « هذا حسن . فإني الساعة أدنى ما أكون إلى الإفلاس . سؤال آخر .. » .

فقاطعتني وقالت « لا تسأل .. سأذكرك بكل شيء » .

قلت « خيراً إن شاء الله ، هاتي ما عندك » .

قالت « أتذكر السويس ؟ » .

قلت « أعرف السويس ، مصيف جميل ، ومشتى أجمل ، فهل تلاقينا هناك على ساحل البحر ، أو في الكازينو ، أو على الباخرة التي ركبتها إلى الحجاز أو ... » .

قالت ـ وهي تضحك ـ « انتظر ، لا لم نتقابل في السويس ، بل في طريق السويس ، عند الكيلو خمسين ، وكنا عائدين إلى مصر .. » .

فقاطعتها « كنا ؟ من تعنين ؟ » .

قالت « ألا تنتظر ؟ أخي وصديقتان وصاحب لهما ، وأنا ، فانكسر غطاء المحرك فوقفنا ننتظر نجدة ، وكاد يدخل الليل ، وكدنا نيأس ، فقد كانت السيارات التي تمر بنا ، لا تقف ، وهي صغيرة لا تتسع لنا ، ولا تقوى على جرنا وإذا أنت مقبل فاعترضت طريقك وأشرت إليك فوقفت ، وسألتنا عما نريد ، فأخبرناك ، فاقترحت أن تحملنا جميعاً في سيارتك ، ولكننا اعترضنا ، وقلنا إننا لا نستطيع أن نترك سيارتنا واقترحنا

عليك أن نربط السيارتين فتجرنا ، ففعلت وركبت أنا معك فقلت لي « ستخرب سيارتي ، وسينهكها هذا العبء ، ولكن حسبي عوضاً أن ست عيون كفت عن البكاء وثلاث وجوه عاد إليها الإشراق » ..

وقد عرفناك وعرفتنا ، وكتبت أسماءنا كلها في رقعة ، ولقيتك أنا وأخي بعد ذلك مرتين ، دعوتنا في أولاهما إلى السينما ، وفي المرة الثانية قضينا أكثر من ساعتين في الأمريكين ، وقد أخبرتك في ذلك اليوم أني مسافرة إلى الأسكندرية لقضاء شهر فيها ، وأعطيتك عنواني فوعدت أن تزورني ، وأن تكتب إلي ، قبل الحضور ، ولكنك لم تفعل لا هذا ولا ذاك » .

قلت « الحمد لله » .

فقطبت وقالت « إيه ؟ ماذا تعني ؟ » .

قلت « اسمعي . إن رأسي هذا غربال واسع الخروق ، كما يعرف كل من يعرفني ، وقد كنت أخشى ، وأنت تقصين علي الحكاية ، أن أكون قد قلت أو فعلت شيئاً .. الحمد لله على كل حال ، فقد اقتصر الأمر على هذا القدر » .

قالت « ولكن لماذا لا تنتظر ؟ لقد وعدتني أيضاً ... »

فقاطعتها قائلاً « هل تريدين أن تضحكي على ذقني ؟ لأنك عرفت أني سريع النسيان ، تخترعين وعوداً و .. » .

قالت « ولماذا أخترع ؟ » .

فتناولت ذراعها وسألتها « سأوجه إليك سؤالاً قد يبدو لك محرجاً أو ثقيلاً ولكن عذري هو هذا النسيان ، هل قلت لك أنك جميلة ؟ » .

قالت « نعم .. قلت : إن عيني زرقاوان كالبحر ، وعميقتان مثله » .

قلت « هذا صحيح » ففرحت وصاحت « هل تذكرت ؟ » قلت « كلا ـ إنما أعني أن عينيك هكذا تماماً وأن هذا الوصف هو الحقيقة على كل حال ـ وهل .. هل .. ؟ » .

قالت « نعم » .

قلت « ماذا تعنين بنعم » بعبوس .

قالت : « منتظرة سؤالك » .

فتشهدت وسألتها « هل قبلتك ؟؟ معذرة ! » .

قالت « أوه .. هذا ... نعم ثلاث مرات ... مرة في الطريق وأنا معك في السيارة ومرة .. » .

قلت « كفى .. كفى .. إني آسف .. ولم يبق إلا أن أسأل هل كانت القبلة حلوة !؟ أظن أني سأجن .. » .

فقالت ، وهي تضحك « إنك مدهش . ولكن هل صحيح أنك تنسى إلى هذا الحد ؟ أم تراك تتكلف لتعابثني ؟

قلت « لا والله ، ما أذكر أني رأيتك في حياتي .. » .

وغريب أن أنسى الأصل وأذكر الهوامش !

فهذه حادثة تريك كيف يكون من المستحيل علي أن أعشق ، لأني أنسى كل حب ، بل كل عاطفة ، لا يزيد عمرها على أربع وعشرين ساعة ، على الأكثر ، ثم تنطوي .

وأعود إلى السؤال الذي بدأت به هذا الفصل ، فأقول إني لم أسأم

الحياة ولم أزهد فيها ، ولا فترت عنها ، بل أنا أطلب لها ، وأقوى رغبة فيها مما كنت في أي عهد مضى ، ولست آنس من نفسي عجزاً عن مسايرة الدنيا ، أو الناس ، فإن الأمر على النقيض ، وأحسب أن الرغبة في الحياة تقوى مع ارتفاع السن وقلما يلفت الشاب إلى الحياة وطولها أو قصرها ، أو يفكر في أنها إلى زوال ، لأن ما يحسه من فيض الحيوية لا يجعل له بالاً إلى شيء من ذلك ، ولأنه يكون مشغولاً بإنفاق هذه الحيوية الزاخرة عن كل أمر أو حال آخر ، فهمه أن يريح نفسه من ثقل الضغط ، وأن يفتح « البوابات » كلها لينحدر منها ويخرج ما يجاوز طاقته ، ويزيد على قدرته على احتمال ضغطه ثم ينقضي الشباب فيسلس التدفق وتخف وطأته ويزداد شح المعين على الأيام ، فيتسنى للمرء أن يفكر بعقله وينظر بقلبه وأن يدير عينه في الماضي ، والحاضر ، وأن يمد بصره في المستقبل ويرى أنه يدلف إلى النهاية ، فيفرق ويشفق وقد يجزع .

وتحدثه نفسه أن النهاية قد تكون أدنى إليه مما يرجو فيشتهي أن يفوز فيما بقي له من العمر . بأضعاف أضعاف ما فاز به فيما مضى وانقضى ويطلب أن ينعم أعظم نعم في أوجز وقت لأنه من يدري ؟ قد لا يطول العمر . وقد يتخونه الموت . وهبه طال فقد لا تبقى الصحة . وما خير حياة بلا صحة ولا قدرة على العمل والاستمتاع ؟

فهو لهذا يقبل على الحياة ، لم يكن يفعل في شبابه ، لأنه كان مغتراً بالعباب الزاخر في شبابه ، ومفتونا به ، ومصروفاً عن التأمل والتدبر ، أما في الكهولة فماذا يغتر ؟ وماذا يتوقع ، وهو يحس النضوب يوماً بعد يوم ؟؟ ومن أجل هذا يخطئ من يتوهم أن الشباب هو وحده سن الإقبال على الحياة ؟ فما ينقطع أو يفتر الإقبال ، ولكن المرء في صغره يركب الحياة بالجهل ، أما في الكهولة فإنه يركبها بالإرادة ، وهو في شبابه يكون محمولاً على متن تيار لا يستطيع أن يقاومه أو يصده ، وفي

كهولته يكون كراكب السفينة المطاوعة يمخر بها إلى حيث يبغي ، وقد صارت في عونه تجربته ، وسكون التيار ، كذلك يخطئ من يحسب الكهولة أضأل استمتاعاً بالحياة ، فإنها أدرى بالمتعة ، وأحس بها ، وأفطن لها ، وأعرف بوجوهها ، وأخبر بالوسيلة إليها .

كلا ، لست أنشد الاعتزال لشيء من هذا الذي سأل عنه بعضهم ، بل لأسباب أخرى أعمق ، أحاول أن أجلوها ، وأراني كلما عالجت ذلك أذهل عنها ، أو استطرد ، أو أغرق خطر أنها في بحر من الذكريات والتأملات .

* * *

١٩

قلت إن من الخطأ أن يتصور أحد أن الشباب أشد إقبالاً على الحياة ، وطلباً لها ورغبة فيها ، أو أن الكهل أقل تشبثاً بالحياة أو أكثر فضيلة أو آثر لها وللعفة والزهادة في سيرته . وقد أثار هذا القول اعتراض بعض الإخوان ، فأنشأوا يجادلونني فيه ، فكان مما قلته لهم إنكم لا تواجهون الحقائق بل تهربون منها ، وتشيحون بوجوهكم عنها ، لأنكم ترون هذا أكرم لكم وأبعث على توقيركم ، أو أنتم تجهلون نفوسكم ، أو تغالطونها أو لا أدري ماذا غير هذا وقد كنت شاباً كما كنتم ، ولعل الفرق بيني وبينكم أني كنت ، وما زلت ، مغرى بإدارة عيني في نفسي ، والغوص في لجتها على ما عسى أن يكون فيها من طيب وخبيث ، وأني لا أحب أن أسمي الأشياء أحسن أسمائها بل أسماءها الحقيقية ، وأني قد أغالط الناس ، وأخدعهم ولكني أصدق نفسي . وليس أحلى عندي وأمتع ولا أوقع وأروع ، من أن أتناول نفسي ، كلما تيسرت لي الخلوة بها ، وأحطها على كرسي أمامي ، وأتدبرها ، وأجيل فيها عيني ، وأفحصها وأجسها ، وأسبر أغوارها ، وأمتحن نزعاتها وبواعثها ، وألتمس المصادر الأولى لأهوائها في أعماقها ، وإصلاحها بحقيقة ما أرى وأعتقد ، بلا تلعثم ، أو مصانعة ، أو مغالطة ، وعسى أن يكون هذا مدعاة للإسراف والشطط لعله يحمل علي التجني ، ولكنه خير عندي من المغالطة على كل حال .

والقول بأن الإنسان يركب الحياة بشبابه غلط ، والصواب أنها هي التي تركبه في شبابه تركض به من غير أن يكون له رأي أو إرادة ، ومن غير أن تدع له فرصة للراحة والاستمتاع ، وما يركب الحياة بالرأي والإرادة إلا الكهل على خلاف المظنون والشائع . أو هذا ، على الأقل ، ما بلوته من نفسي ، وعرفته وأيقنت أنه الصحيح .

كنت شاباً . فكيف كانت حياتي ؟ وكيف كان الشعور بها ؟ أرد عيني إلى هذا الماضي وأحدق ، وأستشف ، وأستجلي ، وأستوضح .

ثم أهز رأسي ولا يسعني إلا أن أقول لا أدري ! كل ما أدريه أني كنت محمولاً على متن تيار قوي ، وكنت أقرأ ، وأعمل ، وأجد وألعب ، وأشتهي وأطلب أو أقصر ولكن بغير فهم صحيح ، أو إدراك تام لما أنا فيه ، أو لبواعثه أو لمصائر الأمور ، كانت الكتب تعديني وتسحرني ، فأنظر إلى الدنيا بعيون أصحابها لا بعيني ، وأحسها بقلوبهم لا بقلبي ، وأتصور حياتي وأقيسها على ما يروقني من صور الحياة في هذه الكتب ، وأنتحل آمال أصحابها ومخاوفهم ، واهتماماتهم وعزماتهم ، ومثلهم العليا ، وصور الكمال عندهم ، وأوحى ذلك كله إلى نفسي ، ثم أزعمني ندهم وقريعهم فأزهى وأتكبر ، وأغتر ، لأني أرى نفسي كما رسمها خيالي الذي استمد من هذه الكتب لا كما هي في الواقع ، وكنت أفعل الشيء أو أتركه بوحي هذه الكتب .

وأضرب مثلاً ـ عشقت مراراً ، وقال فيَّ صديقي الأستاذ العقاد قصيدة بعث بها إليَّ ، في ذلك الزمان .

أنت في مصر دائـم التمهيد بين حب عفى ، وحب جديد

وأذكر أنه بعث إلي يومئذ برقعة كتب فيها أسماء المعشوقات وإلى جانبها أرقامها ، وكان الرقم الأخير ١٧ وسلسل الأرقام تحتها ووضع

أمامها أصفاراً لا أسماء ، إشارة إلى أن معاشقي لا تنتهي ، وأنه ينتظر أن يعرف الأسماء ليقيدها قبالة أرقامها .

وإذا قلت عشقت ، فإنما أعني الآن أني إشتهيت ، وأني عانيت هذا الضرب من الجوع الذي يسميه الناس الحب ، ولكني لم أكن أدرك هذا يومئذ ، أو أنظر إلى حقيقة الأمر فيه ، وإنما كان ما أقرأ من الشعر يغريني بنشدان الحال ، ويطلقني كالنحلة بين أزاهير الحسن ، ويدفعني إلى إيحاء الشعور بالحب إلى نفسي ، فأتوهم أني محب ، وأني عاشق ، فأقضي الليل مسهد الجفن مؤرق النفس ، أنظم الشعر وأقول في هذا المحبوب أو ذاك .

وألقى المحبوب ، فماذا كنت أصنع ؟؟ لا شيء أكون معه كما أكون مع أي واحد من خلق الله ، ولا يخطر لي حتى أن أتملى بهذا الحسن وأسعد بنضارته ورونقه ، أكلمه كما أكلم غيره ، وأجد أو أمزح ، على نحو ما أفعل مع إخواني بلا أدنى فرق وأرجع إلى بيتي ، وأقعد بين كتبي ، فأروح أتصور هذه الجلسة العادية على نحو آخر ، وأخلع عليها من الخيال حللاً ذات ألوان شتى ، وأستبعد ما دار من الحديث وما كان من إشارات أو نظرات لم أعبأ بها في حينها ، وأحملها المعاني التي أريدها ، فأسر بهذا ، وأتألم لذاك ، وأرى في هذه الكلمة والإشارة أو النظرة ، معنى الرضى أو التشجيع ، وفي تلك معنى التدلل أو الملل ، أو القصد إلى الإيلام ولا أزال هكذا حتى تجتمع مادة كافية من ضروب الإحساسات لنظم قصيد !

لا ، لم أكن أعيش ، أو أشعر بالحياة ، وإنما كنت أنظم شعراً ، وكنت وأنا أنظمه أتمثل الإحساس الذي أريد العبارة عنه ، والعاطفة التي أتخيل الصدور عنها ، ووحى لنفسي هذا كله ، وأنتهي بأن أعتقد بأن هذا

هو الذي شعرت به حقيقة لا توهماً ، وأنه هو الذي خامر نفسي لا الذي أنشأته أنا لها بقوة الإيحاء .

ولا يخلو من فائدة في بيان هذه الحقيقة ، وأن أقول أن قرض الشعر هو الذي كان المقصود والذي اتجهت إليه الرغبة وتعلقت به الإرادة وإن ما كان من حب متوهم وإنما كان ثمرة هذه الرغبة في قرض الشعر ، أي أن قول الشعر كان يبعث على التماس المادة له ، كما يريد النجار أن يصنع كرسياً فيطلب الخشب وما إليه ، والدليل على أن هذا كله كان بفعل الإيحاء ، أن من أعرف الآن من نفسي أني صغوت بقلبي إليها لم تكن قط موضوعاً لشعري ، فإذا كنت قد نقلت قلبي مرات وطرت من زهرة إلى زهرة في بستان الحسن ، فذاك لأن العاطفة لم تنشأ نشوءاً طبيعياً ، بل بإيحائها إلى النفس .

وفي وسع القارئ أن يقيس على هذا . فأنا لم أكن في شبابي أتلقى وقع الحياة مباشرة ، بل عن طريق الكتب ، وكنت لهذا كالذي نومه غيره تنويماً مغنطيسياً ، فرأيه ، وشعوره ، وعاطفته ، وهواه ، وأمله وخوفه ، وحبه وبغضه ، هو ما يحدثه في نفسه إيحاء منومه .

وقد شببت عن هذا الطوق . وما زال ولوعي بالكتب كما كان ، ولكنه لم يبق لها شيء من ذلك السحر القديم ، فقد استطعت بفضل معاناتي للحياة أن أقي نفسي وأجنبها تلك الفتنة ، فأنا أنظر في الكتب وفي الحياة ، بعيني ، لا بعين الكاتب أو الشاعر ، وأحس بقلبي لا بقلب سواي وأتلقى وقع الحياة منها لا من إيحاء الكتب ، وأطلب الشيء لأني أريده وأراه جديراً بالطلب ، وأقيس قدرتي إلى رغبتي ، وأوازن جهد السعي وثمرته المرجوة وأقدم أو أحجم بعد القياس المضبوط ، والموازنة الدقيقة .

وأحاول أن لا أغالي بقيمة شيء ، أو أن أبخسه حقه ، ولا يستخفني هوى ، أويغرني حال ، أو يخرجني عن طوري أمر ، أو يفقدني اتزاني فرح أو حزن ، ورضى أو غضب ، ولا تجمح بي شهوة ، ولا تركض بي صبوة ، لأني أصبحت أعرف القيم الحقيقية للأشياء ، ولا أعدو بها مكانها ، ولا أخلط بها الأوهام ، ولأني أسير في الحياة بالإرادة الصارمة لا طوع الجواذب ، فإذا سألتني لماذا أفعل الشيء ، فإني أعرف الجواب الصحيح ، إذا كنت لم أفعله إلا بعد الروية والحساب والوزن ، وكذلك ما أترك أعرف علة تركه .

ويمكن أن أقول ـ ويمكن أن يصدق القارئ ـ إني كنت في شبابي أواقع الحياة مواقعة الهواء ، أما الآن ، فإني أواقعها مواقعة المحترف ، وقد صارت الحياة عندي حرفة ، تعلمتها ، وحذقت منها الجانب الذي طلبته ورأيته أوفق لي ، والفرق بين الهاوي والمحترف لا يحتاج إلى بيان .

وكل عواطفي وأهواء نفسي ، طوع إرادتي ، وإرادتي لا تخضع إلا لتقديري لما ينبغي ـ ويحق لي في رأيي ـ أن أفوز به من الحياة . والعمد في سيرتي محقق ، إلى الحد الذي يتيسر للمخلوق الخاضع لسنن الخلق . وهذا العمد من بواعث السعادة لنفسي . لأنه يكسبني حظاً من الاستقلال ويجعل لي فيما أشعر نصيباً من الحرية ، في الحياة ، ولا شك أنه يجعل شعوري بالتبعات أقوى وأثقل ، ولكن هذا هو الأكرم ، إذ أي قيمة لإنسان لا يشعر أنه مسئول عما يصنع ؟

* * *

٢٠

كانت حياة الشباب ، حياة كبت ، وحرمان وحيرة ولم أكن أعرف لي يومئذ معاداً غير الإكباب على القراءة والإكباب على قرض الشعر وكنت أقول ـ ولا يخفى عليَّ عبث ما أحاول ـ

وما نظمي من الأشعار إلا علالة   لو أن سَلْوا بالقريض يكون !

* * *

وكنت أقول لمن يذكرون شعري :

« فلا تنفسوا شعراً ، علي ، مفوفا   له ، لو علمتم ، جانب متخوف
كما نظمت هذه الرياح غمائماً   لها من غروب الشمس وشي مطرف
يهددهـــا ممـــا يضم ، ممزق ،   ومما يوشيها ، مذيب ومتلف
لنا الله من قوم تذيب نفوسنـــا   ويجني سوانـــا ما نشور ونقطف
ويصدر عنـــا الناس ريا قلوبهم   ونحن عطاش ، بينهم نتلهف
نذوق شقاء العيش دون نعيمـــه   على أننـــا بالعيش أدرى وأعرف

* * *

وأحب أن أتعزى بالوهم فأردف ذلك بقولي :

« ولكنـــه مـــا أخطأتنـــا لذاذة   إذا بلغ السؤل القريض المثقف

إذا هو سرى عن لهيف مفجع وآنس قلبــاً موحشاً يتشوف
فما تحفل الدنيا إذا جــل ظلمها ونحن من الأيام والعيش ننصف»

ولم يكن زعمي أني أحد الذين ينصفون نفوس الناس من الأيام وظلمها ، بعزاء صادق أو دائم ، فكانت وطأة الحرمان والكبت تثقل على كاهل صبري فأصيح :

«لبست رداء العيش عشرين حجة وثنتين ، يا شوقي إلى خلع ذا البرد!
عزوفاً عن الدنيا ، ومن لم يجد بها مراداً لآمال تعلل بالزهد» .

فيوم كان فيض الحياة زاخراً ، كنت أقول يا ليتني ما كنت ، ولم يكن هذا طبيعياً ، ولكنه كان ثمرة الكبت ، وجني الحرمان ، وقطاف الحيرة ، والآن ، وأنا أدلف إلى الخمسين ، لشد ما أتمنى أن يثقل الزمان رجله ، ليطول التلبث ، وتقضي النفس وطرها من التزود قبل أن يستأنف الركب مسيره إلى «فجر لا شيء» كما يقول الخيام في إحدى رباعياته ؟ وقد صار ما كان يشق علي أن أراه ، باعثاً على التسلية ومجلبة للسرور ، ولم يصدق ظني حين توهمت في أيام الشباب الكاذب ، أني سأقضي حياتي ثائر النفس ، هائجاً ، أنه ليس لي عن ذاك معدى أو مهرب فقد قلت :

«سكنت فما أدرى الفتى كيف يغتدي تجد به الأشجان طوراً وتلعب»

كما قلت على لسان غيري .

بل لم أسكن ، ولكني نظرت إلى الحياة من ناحية أخرى ، فقد تغيرت الدنيا ، واختلفت أحوال الحياة ، فراجعت نفسي ، ورضيتها على غير ما ألفت وانعطفت بها إلى سبل أخرى . فقد عرفت أن شعوري القديم بالمقت للحياة كان غير صادق ، وأنه لم يكن سوى مظهر لحالة

عارضة أعانيها ، وأن حب الحياة والتعلق بها أعمق من ذلك لكن حب الحياة كان يصطدم أحياناً بالجزع من الموت ، فكان يرجني هذا ويخرجني عن طوري ، ويعصف باتزاني فأراني أثور وأحاول في مثل هذه الحالة الوقتية أن أنغص على الناس كأن لهم ذنباً أو كأنهم ليسوا مثلي سواء بسواء ، فأروح أقلد « هيني » الشاعر الألماني ، وأكتب وصية ليس أكشف منها عن جنون الثورة ، فأقول مثلاً :

« سترخى على هذي الحياة الستائر	وتطفأ أنـوار ويقفـر سامـر
فهل راق هذا الناس قصة عيشتي؟	وماذا يبالي من طوتـه المقابر ؟
تركت لهم من قبل موتي[1] وصيـة	نظير التي وصت بها لي المقـادر
وهبت لأعدائي ، إذا كان لي عدى[2]	همومي وما منه ، أنا الدهر ثائر
وأوصيت للمحبوب بالسهد والضنى	وبالدمع لا يرقى ، ولا هو هامر ،
وبالجدري في وجهـه ليزينـه	وبالعرج[3] المرذول ، والله قادر
وبالضعف والإملاق واليأس والجوى	وبالسقم حتى تتقيـه النواظر
وللشيب بالأوجاع في كل مفصل	وبالثكل في الأبناء والجد عاثر
وكل سقام قد تركت لذي الصبا	ومـا كنت منه في الحياة أحاذر
وللناس ألوان الشقاء ، وإنني ،	إذا مت ، لا آس على من يخامر

ولم يكن لي في ذلك الحين بنون ومن أجل هذا فاتني أن أوصي لهذه الطبقة بشيء من تلك الثروة البغيضة !

---

(١) كأنما يمكن أن تكتب الوصية بعد الموت !

(٢) هذا الاحتراس ليس سببه أن ليس لي أعداء فإنهم كثر بحمد الله وأكثر من اللازم ولكني أحسبهم سيتبرأون من عداوتي متى قرأوا الوصية على أني قطعت عليهم خط الرجعة فلم أترك أحداً دون إيصاء بشيء .

(٣) جرى العرج ببالي لأني أنا أعرج .

وكان عقلي يثوب ، فأطوي هذا الهراء ، ولا أنشره فيما كنت أنشر من شعري .. على أني كنت هادئاً ساكناً ، لما عثرت ـ وأنا أحاول عبثاً أن أتعلم الألمانية وحدي ـ على بيتين فيهما غير قليل من خبث المكايدة ففرحت بهما وترجمتهما فيما يلي ـ والمفروض أنهما يكتبان على قبر صاحبهما .

أيهـــا الـــزائر قبري	أتـل ما خط أمـــامك !
ههنا ، فاعلم ، عظامي	ليتها كانت عظـامك !

وترجمتي هذين البيتين ، وأنا هادئ ، دليل على أن الثورة كامنة في النفس وإن كانت لا تبدو في العادة .

ثم صرت لا يعزيني علمي أن غيري لا محالة ذاهب ، إلى حيث أذهب وإن المآل واحد، ولا يقنعني إلا أن أصور لنفسي فناء العالم كله ، بل العوالم أجمع ، حتى هذا لم يكن فيه مقنع ، فكنت أشتهي أن أكون آخر من في الدنيا لأشهد مصرعها بعيني ، وأطمئن . وربما غالطت نفسي فزعمت لها أن هذه شهوة فنية ، ولكني لا أصدق ! كلا ، لا أصدق .

وكان مظهر هذا قصيدة تصورت فيها ثلاثة نساجين (لا أدري لماذا لم أجعلهم أربعة أو عشرين !) يصنعون كفناً للعالم .

تعاقب أيديهم على النول ، دهرهم	ولست أراه غير أني عـــالم
وما بي ، إلى أن تبصر العين ، حاجة	أليس سوي ما أنت بالعين شاتم ؟
هنالك لو تدري تسدّي أكفهم	وتلحم ثوباً عهده متقـــادم
وفي مسمعي منهم ـ وإن كنت لا أرى	وجوههم ـ أصواتهـــم والزمازم
يحوكون ثوباً ناصعاً فيه تنطوي	متى عريت ـ هذي الدنا والعوالم
من البرد الخزيّ بعض خيوطـه	ومن بلورات القر فيـــه نمـــانم

ومن نفس الريح المديد خطوطه ومن قطع السحب الثقال مراقم
ألا ليتني في الأرض آخر أهلهـــا فاشهد هذا النحب يقضيه عالم

وقد خلفت ورائي هذه المرحلة أيضاً ، فلست ألتمس عزاء ، أو أنشد ما أغالط به نفسي في الحقائق . وسيان عندي اليوم أن يذهب الناس أو لا يذهبون ، فما أحفل شيئاً من هذا ، وإنه لآثر عندي أن يبقوا لو كان إلى هذا سبيل ، على أني لا أعني نفسي بأمرهم ، وحسبي أمر نفسي ، وهمي في هذه الآونة أن أروضها رياضة جديدة على سكون لا يفسده اضطراب ، لا على الركود فإن هذا شر من الموت ؛ بل طعمه يذاق في الحياة ، والسكون قوة لأنه ابن الإدراك الصحيح والإرادة .

* * *

مطابع الشروق ـ بيروت
ص. ب. : ٨٠٦٤ ـ ت ٣١٥٨٥٩

قصة حياة

حياة المازني ، نشأته ، بيئته ، طفولته ، تجاربه الأولى ، والدروس التي استمدها من واقع هذه الحياة الذاخرة بالحيوية . وإنها لقصة إنسانية بكل معنى هذه الكلمة ، تجد فيها الشخصية المصرية الأصيلة ، بكل خصائصها ، لا تزويق فيها ولا رتوش ، بل مجردة ، صادقة ، رائعة ، في القالب الأدبي البليغ ، والأسلوب الشائق والتصوير المبدع الرائع .

محمد المازني